

2017

Alignments in the Pre-Islamic era, Mythological Reading

Ahmad Khouli

An-Najah National University, Nablus, Palestine, ahmadkhouli94@gmail.com

Follow this and additional works at: https://digitalcommons.aaru.edu.jo/anujsr_b

Recommended Citation

Khouli, Ahmad (2017) "Alignments in the Pre-Islamic era, Mythological Reading," *An-Najah University Journal for Research - B (Humanities)*: Vol. 31 : Iss. 7 , Article 1.

Available at: https://digitalcommons.aaru.edu.jo/anujsr_b/vol31/iss7/1

This Article is brought to you for free and open access by Arab Journals Platform. It has been accepted for inclusion in An-Najah University Journal for Research - B (Humanities) by an authorized editor. The journal is hosted on [Digital Commons](#), an Elsevier platform. For more information, please contact rakan@aarj.edu.jo, marah@aarj.edu.jo, u.murad@aarj.edu.jo.

الأحلاف في العصر الجاهلي؛ قراءة ميثولوجية

Alignments in the Pre-Islamic era, Mythological Reading

أحمد خولي

Ahmad Khouli

قسم اللغة العربية، كلية العلوم الإنسانية، جامعة النجاح الوطنية، فلسطين

بريد الكتروني: ahmadkhouli94@gmail.com

تاريخ التسليم: (2016/9/18)، تاريخ القبول: (2017/2/14)

مُلخَص

هذه دراسة تَمُنَحُ لِاسْتِكْنَاهِ الْأَسِّ الميثولوجيِّ لِالأحلافِ المَعْقُودَةِ، وَالْعُهُودِ المُبْرَمَةِ فِي العَصْرِ الجاهليِّ، قاصدةً بِذَلِكَ الكَشْفَ عَن مَظَانِّهَا البِدْئِيَّةِ التي انبثقت منها، فِي ظلِّ ما تَقَدَّمَ، يَسْعَى الباحِثُ إِلَى تَأْصِيلِ الأحلافِ ميثولوجيًّا، ثُمَّ الولوجِ إِلَى قِراءَةِ كَيْفِيَّةِ عَقْدِهَا، وَأَمَاكِنِ إِبْرَامِهَا، وَطُقُوسِ تَوْثِيْقِهَا، وَالوَطَائِفِ الدِّينِيَّةِ التي وَكَلَتْ إِلَيْهَا، مُتَّخِذًا مِنْ جِلْفِي المُطَيَّبِيْنَ وَلَعَقَةِ الدَّمِ أنموذجًا لِلدِّرَاسَةِ.

الكلمات المفتاحية: الأحلاف، الشعر الجاهلي، الأسطورة.

Abstract

This study looks to know about the basic methodological alignments that were found in the Pre-Islamic era. It means by that to reveal the primitive foundations that flowed from them. In light of the above, The researcher firstly seeks for establishing the origin of the alignments methodologically. And finally discusses the religious functions that were for those alignments. The researcher took the "Almtaibian", and "Laaq Al Dm" alignments for this study.

Keywords: Alignments, Al- jahilee poetry, Myth.

تَأْسيِس

انمازت حياةُ الجاهليِّ بِكثْرَةِ الحُرُوبِ التي خاضَ عِمارَها انتجاعًا لِلكَلأِ وَالْماءِ، فَأَرْضُهُمْ قَلَوَاتٌ مَوَاتٌ، قَلِيلَةٌ الأَقْواتُ، الأَمْرُ الذي كانَ مَدْعاءَ لِإِبْرَامِهِ العُقُودِ، وَعَقْدِهِ التَّحالفاتِ مَعَ جِوارِهِ

إيثاراً لأمنه وأمانه، وحفظاً لاستمرار وجوده وبقائه، وحفاظاً على قوافله التي تجوب صحراءه، وخدمةً لزاكري حرمه في مواسمهم الدينية.

والأحلاف أصيلة في حياة الجاهلي أصالة وجوده في جزيرة العرب، "فيري (كولد زيهير): أن أكثر أسماء أجداد القبائل هي أسماء أحلاف، ضمت عدداً من القبائل التي توحدت مصالحها، فانفقت على عقد حلف فيما بينها"⁽¹⁾، الأمر الذي يولد بين تلك القبائل عصبية لا تقل حدة عن عصبية الفردي لقبيلته، "وقد يستمر الحلف جيلاً بعد جيل، ولا ينقضي إلا بسبب أحداث جسيمة، وعندئذ يصبح صلةً لاجمة بين القبائل المتحالفة"⁽²⁾، فهذا عبد المطلب يوصي في حلفه لخزاعة إلى ابنه الزبير، ليوصي الزبير بعده إلى أبي طالب، ثم ليوصي أبو طالب إلى العباس⁽³⁾، فحرصوا على توارثها توارثهم عقيدتهم، وخشوا من انقضائها إلى أن بلغ بهم المبلغ أن يزدوا أحلافهم لمن لا ولد له، فكان لآل مسعود بن عمرو أن تسترد حلفها لآل ابن جُدعان حين حضرته الوفاة لأنه لا ولد له⁽⁴⁾.

كما كان لها الشأن الخطير، والشأن الرفيع، لا على مستوى الأفراد، والقبائل، والحكومات العربية حسب، بل امتد لعقده الحبال مع جواره الأجنبي، "ففي المسند أمثلة عدّة على محالفات الحكومات العربية بعضها مع بعض، أو محالفاتها لحكومة أجنبية، مثل: الحبشة، كما في الكتابات الآشورية، وفي مؤلفات اليونان واللاتين"⁽⁵⁾.

اعتاد الجاهلي أن يربط كل حطب في حياته ذي مكانة مكيبة بالدين، ليسغ عليه هالة من القداسة والحُرمة، فيحفظه من التبدد، ويصرفه لكل تجدد، وهذا شأن الأحلاف، "فذكر (هيرودوتس) أن العرب يحافظون على العهد والمواثيق محافظة شديدة، لا يشاركون في ذلك أحد من الأمم، وأن لها قداسة خاصة عندهم"⁽⁶⁾، وهي تعود في أصولها إلى الإله (حلفن)، "وهو إله القسم والحلف في عقيدته"⁽⁷⁾، فكان لزاماً عليه وإلزاماً أن يفي بعهده، فلا يخنث به، وقد ورد اسم الإله هذا في جملة نصوص تتعلق بحبس أموال، وعقد عقود، حيث استعان أصحاب تلك النصوص به لإنزال وابل من السخط والشور واللغات على كل من ينكث بالعقود، أو يبدل بها، كما رجوا منه أن يشملهم وجماعتهم برحمته وأطفه وكرمه⁽⁸⁾.

(1) علي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، بيروت، دار العلم للملايين، ط1، 1970، ج4، ص385-386.

(2) الشريف، أحمد إبراهيم، مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول، القاهرة، دار الفكر العربي، دت، ص72.

(3) يُنظر: البيهقي، محمد بن حبيب، المنق في أخبار قريش، تحقيق: خورشيد أحمد فاروق، بيروت، عالم الكتب، ط1، 1985، ص89.

(4) يُنظر: المصدر السابق، ص248.

(5) علي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج4، ص372.

(6) المرجع السابق، ج4، ص379.

(7) نعمة، حسن، موسوعة ميثولوجيا وأساطير الشعوب القديمة، بيروت، دار الفكر اللبناني، ط1، 1994، ص200.

(8) يُنظر: علي، جواد، أبحاث في تاريخ العرب قبل الإسلام، دراسة ومراجعة: د. نصير الكعبي، بيروت، المركز الأكاديمي للأبحاث، ط1، 2011، ج1، ص103.

تَخْتَرُنْ لُفْظُهُ الْحَلْفِ وَرَدِيفَاتُهَا حَقُولًا دِلَالِيَّةً لَهَا قَدَاسَتُهَا، حَيْثُ تَحْمَلُ فِي حَنَائِهَا مَظَاهِرَ
الْيَمَنِ وَالتَّعَاهُدِ وَالْأُلُوهَةِ، "فَالِإِلُّ الْحَلْفُ وَالْعَهْدُ"⁽¹⁾، قال عبد المطلب في حلفه لُخْزَاعَةَ⁽²⁾:

هُم حَفِظُوا الْإِلَّ الْقَدِيمَ وَحَالَفُوا أَبَاكَ فَكَانُوا دُونَ قَوْمِكَ مِنْ فَهْرٍ

"وهو اسم من أسماء الله عز وجل، وهو الرُّبُوبِيَّةُ"⁽³⁾، بِذَا قَدِ اقْتَرَنْتَ بِالْإِيمَانِ وَالِاسْتِقْسَامِ،
"فُسَمِّي الْحَلْفُ بِذَلِكَ لِأَنَّهُ لَا يُعْقَدُ إِلَّا بِالْحَلْفِ"⁽⁴⁾. وَيُظْهَرُ أَنَّ الْحَلْفَ فِي عَقِيدَةِ الْجَاهِلِيِّ كَانَ
مَقْرُونًا بِيَدِهِ الْيَمَنِ، "فَدَعِيَ الْقَسْمُ يَمِينًا"⁽⁵⁾، كما "قيل: استيمنت الرجل أي: استخلفته"⁽⁶⁾، ويرى
ويرى الجوهري "أن اليمين إنما سُميت بذلك لأنهم كانوا إذا تحالفوا ضرب كل امرئ منهم يمينه
على يمين صاحبه"⁽⁷⁾، وهو في رأيه إنما يُحِيلُ اليمينَ إلى الأفراد الذين كانوا يتعاقدون، لا إلى
العقيدة التي أقرت عليهم فعل ما يفعلون، وكان الصواب أن يُقال: يمين فلان، لا يمين الله، بيد أن
العكس أظهر للصواب، قال امرؤ القيس⁽⁸⁾:

فَقُلْتُ يَمِينَ اللَّهِ أَبْرَحَ قَاعِدًا وَلَوْ قَطَعُوا رَأْسِي لَدَيْكَ وَأَوْصَالِي
وقال⁽⁹⁾:

فَقَالَتْ يَمِينُ اللَّهِ مَا لَكَ حِيلَةٌ وَمَا إِنْ أَرَى عُنْكَ الْغَوَايَةَ تَنْجَلِي

يَخَالُ الْبَاحِثُ أَنَّ يَدَ هُبَلِ الْيَمَنِ - والتي جعلتها فُرَيْشٌ من ذهب - يَدُ الْحَلْفِ وَالِاسْتِقْسَامِ،
فَكَانُوا إِذَا اخْتَصَمُوا فِي أَمْرٍ أَوْ أَرَادُوا سَفَرًا أَوْ عَمَلًا، اتَّوَهَ فَاسْتَقْسَمُوا بِالْقَدَاحِ عِنْدَهُ⁽¹⁰⁾، وَإِنَّمَا
خَصَّصُوا الْيَمَنِ دُونَ الْيُسْرَى، لِأَنَّهُمْ اعْتَقَدُوا أَنَّ يَمِينَ الْإِلَهِ قَرِينَةُ الْخَيْرِ وَالْبَرَكَاتِ وَالْقُوَّةِ وَالْقُدْرَةِ،
وَعِنْدَمَا جَاءَ الْإِسْلَامُ، "أتى في الحديث: الْحَجَرُ الْأَسْوَدُ يَمِينُ اللَّهِ عَلَى الْأَرْضِ، وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ:
وَكُنَّا يَدِيهِ يَمِينٌ، أَي أَنَّ يَدِيهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، بِصِفَةِ الْكَمَالِ، لَا نَقْصَ فِي وَاحِدَةٍ مِنْهَا، لِأَنَّ الشَّمَالَ
تُنْقَضُ عَنِ الْيَمِينِ"⁽¹¹⁾.

(1) ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، بيروت، دار صادر، ط4، 2007، المادة: "أل".

(2) البغدادي، محمد بن حبيب، المنمق في أخبار فريش، ص88.

(3) اللسان، "أل".

(4) اللسان، "حلف".

(5) اللسان، "قسم".

(6) اللسان، "يمن".

(7) الجوهري، إسماعيل بن حماد، الصحاح: تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار،
بيروت، دار العلم للملايين، ط4، 1990، المادة: "يمن".

(8) امرؤ القيس، ديوانه، تحقيق: مصطفى عبد الشافي، بيروت، دار الكتب العلمية، ط5، 2004، ص125

(9) المصدر السابق، ص114.

(10) يُنظَرُ: ابن الكلبي، محمد بن السائب، الأضنام، تحقيق: أحمد زكي باشا، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1،
2011، ص57.

(11) اللسان، "يمن".

وَمِنَ الْأَسْمَاءِ الَّتِي دُعِيَتْ بِهَا الْأَحْلَافُ الْجِبَالُ، "فَيَقَالُ: بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِ جِبَالِ أَيِّ عُهُودٍ وَمَوَاطِئِقٍ"⁽¹⁾، قَالَ الشَّاعِرُ⁽²⁾:

أَبْنِي أُمِّيَّةَ كَيْفَ أَظْلَمُ فِيكُمْ وَأَنَا ابْنُكُمْ وَحَلِيفُكُمْ فِي الْعُسْرِ
وَعَقَدْتُ حَبْلِي فِي جِبَالِكُمْ عِنْدَ الْجِمَارِ عَشِيَّةَ النَّحْرِ
وَقَالَ آخِرُ⁽³⁾:

مَا زِلْتُ مُعْتَصِمًا بِحَبْلِ مَنْكُم مَنْ حَلَّ سَاحَتِكُمْ بِأَسْبَابِ نَجَا
وَقَالَ مَرْدَاسُ بْنُ أَبِي عَامِرٍ حِينَ حَالَفَ حَرْبَ بْنَ أُمِيَّةَ⁽⁴⁾:

إِنِّي أَخَذْتُ بِنِي حَرْبٍ وَإِخْوَتِهِ إِنِّي بِحَبْلِ شَدِيدِ الْعَقْدِ دَسَّاسٍ
وَقَالَ الْأَعْشَى فِي حَبْلِ الْجَوَارِ⁽⁵⁾:

فَإِذَا تُجَوَّزُهَا جِبَالُ قَبِيلَةٍ أَخَذْتُ مِنَ الْأُخْرَى إِلَيْكَ جِبَالَهَا
وَفِي الذِّكْرِ الْحَكِيمِ دَعَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَهْدَهُ وَمِيثَاقَهُ بِحَبْلِ اللَّهِ، فَقَالَ تَعَالَى⁽⁶⁾: (وَاعْتَصِمُوا
بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا).

يبدو أنَّ تسمية العهد بالحبل قد جاءت على سبيل الحقيقة لا المجاز، حيث ارتبط حضوره بطبوس خاصة تتمثل بعقد كل حليف حبله وحبل حليفه بعد التلاوة على العقدة تعاويد من اللعنة والبركة، فيختزن قوة سحرية تحفظ العهد من التبدد، وتنزل الشرور بكل من حنت بميثاقه واعتدى على قداسة الحبل وعقدته.

كما يظهر أنَّ حضور الحبل قد كان سائدًا عند إبرام القبائل البدائية عهودها وأحلافها، ففي قبيلة (واتشاجا) الإفريقية إذا شاء حيان منها أن يعقد حلفًا صارمًا فإنَّ الشعائر التي تؤدي للتصديق على هذا الحلف تجري على نحو يجتمع فيه المتحالفون من كلا الحيين، ويجلسون متزاحمين في شكل دائري، ثم يُلف حبل حول الجالسين ويُعقد طرفاه السائبان حيث يبدو وكأنهم مكبلون بالحبل، وقبل أن يعقد الحبل من طرفيه، يُحرَّك ثلاث مرات أو سبع حول

(1) ابن دريد، محمد بن الحسن، الاستنطاق، تحقيق: عبد السلام هارون، القاهرة، مكتبة الخانجي، ط3، دت، ص209.

(2) البغدادي، محمد بن حبيب، المنمق في أخبار قريش، ص238.

(3) اللسان، "حبل".

(4) البغدادي، محمد بن حبيب، المنمق في أخبار قريش، ص272.

(5) الأعشى الكبير، ميمون بن قيس، ديوانه، تحقيق: محمد حسين، الجماميز، مكتبة الآداب بالجماميز، دت، ص29. فكان من عادة العرب أن يُخيف بعضها بعضًا في الجاهلية، فكان الرجل إذا أراد السفر أخذ عهدًا من سيد كل قبيلة فيأمن به ما دام في تلك القبيلة حتى ينتهي إلى الأخرى فيأخذ مثل ذلك أيضًا، فهذا حبل الجوار، اللسان "حبل".

(6) آل عمران، الآية 103.

المتحالفين بعد أن يُربط فيه جُذِي صغير يتحرك مع الحبل، ثم يقوم الرجال العجائز بتلاوة عبارات اللعنة والبركة، ثم يُقطع الحبل ويُشق الجُذِي إلى نصفين في آن واحد، ويُنثر الدم على المتحالفين ويأكلون لحم الجدي، فإذا حلَّ وباء في القبيلة أرجعه الكهنة إلى نقض سگان البلد الموبوءة العهد، ولا بدَّ من التكفير عن الذنب المُقترف الذي يسميه أهالي القبيلة بـ(تبريد الحبل)، ذلك أن القوة السحرية التي خلعتها العهد على الحبل تمارس نشاطها، حسب اعتقادهم، في ذلك الانتقام ممَّن دَسَّ قَداسة ذاك الحبل⁽¹⁾. ومن الحبل جاء إبرام العهد وعقده، "فإبرام الأمر إكمامه، وأبرم الحبل: أجاد قتله، والمبرم: الحبل الذي جمع بين مفتولين فقتلًا حبلًا واحدًا"⁽²⁾، وكذلك الحلف، يجمع بين المتحالفين فيصيرهم لُحمةً واحدة، ويُقال: عقدت الحبل، كما يُقال عقدت العهد، قال الحطينة⁽³⁾:

أولئك قومٌ إن بنوا أحسنوا البنأ وإن عاهدوا أوفوا وإن عاقدوا شَدوا

وعند أهل اليمن، دعي الحلف تكلعًا، "فالتكلع: التحالف والتجمع، لغة يمانية، وإذا اجتمعت القبائل وتناصرت فقد تكلمت"⁽⁴⁾، ولقداسته عندهم لقبوا ملكهم - وهو لإله على الأرض ظلّه - بذي الكلاع، "وهو ملكٌ جميريٌّ تكلموا على يديه"⁽⁵⁾. وفي العهد القديم، نُعتت الأخلاف التي عُقدت في سفر التكوين بالقطع، فجاء في وعد الرب لإبراهيم أن أمره قائلًا: "خذ لي عجلة عمرها ثلاث سنوات، وكبشًا عمره ثلاث سنوات، وبمامة وحمامة، فأخذ هذه كلها وشطرها أنصافًا"⁽⁶⁾، ثم أخذ يزرع الطيور الكاسرة عن الذبائح، "فما إن غابت الشمس وخيم الظلام، حتى ظهر تهور دخان ومشعل نارٍ عابر بين تلك القطع من الذبائح، في ذلك اليوم قطع الرب مع إبرام عهدًا"⁽⁷⁾.

كما جاء في الحلف بين إبراهيم وأبيمالك في بئر السبع أن قال لإبراهيم: "أرى أن الله معك في كل ما تعلمه، فأحلف لي هنا بالله أنك لا تغدر بي، ولا بدريتي ونسلي، بل تبادلني معروفًا بمعروف، أنا والأرض التي تغربت فيها، فقال إبراهيم: أحلف"⁽⁸⁾، ثم ذهبًا لتأدية طقوس الحلف، "وأخذ إبراهيم غنمًا وبقراء، فأعطى أبيمالك، وقطعا كلاهما عهدًا"⁽⁹⁾، والأمر ذاته يتكرر

(1) يُنظر: فريزر، جيمس، الفلكلور في العهد القديم، ترجمة: نبيلة إبراهيم، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1972، ج1، ص337-339.

(2) اللسان، "برم".

(3) الحطينة، ديوانه، برواية وشرح ابن السكيت، تحقيق: مفيد قميحة، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1993، ص76.

(4) اللسان، "كلع".

(5) اللسان، "كلع".

(6) التكوين: 15: 10-11.

(7) التكوين: 15: 18-19.

(8) التكوين، 21: 22-25.

(9) التكوين، 21: 28.

بَيْنَ إِسْحَاقَ وَأَبِيمَالِكَ الَّذِي قَالَ لِإِسْحَاقَ: "إِيكُنْ حِلْفُ بَيْنِنَا وَبَيْنَكَ، وَلْنَقْطَعْ مَعَكَ عَهْدًا"⁽¹⁾، ويدعو لابان يعقوب قائلاً: "فتعالِ نَقْطَعْ عَهْدًا، أَنَا وَأَنْتَ، وَنَقِيمُ شَاهِدًا بَيْنِي وَبَيْنَكَ"⁽²⁾.

يبدو أن نعت العهد بالقطع قد جاء من شعيرة ذبح الضحية، وشطرها إلى شطرين بوصفها وسيلة لخلع المهابة على القسم والعهد، وللإشارة إلى المصير الذي سيلقاه المخادع أو ناقض العهد، وهو ما يُفسرُ بنظرية الجزاء⁽³⁾، كما تتلّزم شعيرة القطع مع شعيرة مرور المتعاهدين بين أجزاء الضحية للإشارة إلى انتمائهم إلى حياة الحيوان الروحية، ولوقاية العهد من القطع، ذلك أن لحم الضحية ودمها تتشكل عقبة في طريق القوى الشريرة، وهو ما يُفسرُ بنظرية السرّ المقدّس⁽⁴⁾.

قد كان للأخلاف أن تبلغ في شأوها مكانةً تُبوئ الحليف أن يرث حليفه، فكان الرجل يُعاقِدُ الرَّجُلَ وَيُنْشِي: "دَمِي دَمُكَ، وَهَدْمِي هَدْمُكَ، وَتَارِي تَارُكَ، وَحَرْبِي حَرْبُكَ، وَسَلْمِي سَلْمُكَ، وَتَرْسِي وَارْتُك، وَتَطْلُبُ بِي وَأَطْلُبُ بِكَ، وَتَعْقِلُ عَنِّي وَأَعْقِلُ عَنْكَ"⁽⁵⁾، الأمر الذي يُدرك من خلاله عمق الصلة اللاحمة التي يُؤسسها الحلف وأصالتها، وظلّ الأمر على عهده حتى بدايات الإسلام، فقال تعالى⁽⁶⁾: (وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوَالِي مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلَّذِينَ عَقَدْتُمْ أَيْمَانَكُمْ فَأَتَوْهُم نَصِيْبُهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا)، فأقر له السُّدُسُ إلى أن نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى⁽⁷⁾: (وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)، فَتَسَخَّرَتْهَا، وَتَرَكَ لِلْخُلَفَاءِ أَنْ يُعْطُوا خُلَفَاءَهُمْ نَصِيْبَهُمْ مِنَ النَّصْرَةِ وَالنَّصِيْحَةِ وَالرِّفَادَةِ⁽⁸⁾.

الأخلاف وطُفوس إبراهيم

مُنْذُ الْقَدَمِ، اقْتَرَنْتَ عَقِيدَةَ الْإِنْسَانِ بِمُجْمَلِ طُفُوسٍ يُؤَدِّيْهَا سُبُلًا إِلَى تَحْيِينِ الْحَدَثِ الدِّينِيِّ، فَكَانَ لِلطُّفُوسِ أَنْ يَنْقُلَهُ مِنْ حَبْرِ الْإِيمَانِ وَالْإِعْتِقَادِ، إِلَى حَيِّزِ الْعَمَلِ وَالْمُمَارَسَةِ، "فَإِذَا كَانَتْ الْمَعْتَقَدَاتُ وَمَا يَدُورُ حَوْلَهَا مِنْ أُسَاطِيرَ تَضَعُنَا فِي مَوْقِفٍ ذَهْنِيٍّ مِنَ الْقَدْسِيِّ، فَإِنَّ الطُّفُوسَ يَضَعُنَا فِي مَوْقِفٍ عَمَلِيٍّ"⁽⁹⁾، وَإِذَا وَكَلَّ إِلَى عَقِيدَتِهِ صَفَلٌ جَانِبِهِ الرُّوحِيَّ فَيَمَا وَقَرَ فِي قَلْبِهِ، وَكَلَّ إِلَى طُفُوسِهِ إِنْعَاشٌ جَوَارِحِهِ، وَإِضْفَاءٌ الرَّهْبَةِ وَالْقُدَاسَةِ عَلَى زَمَنِ تَأْدِيْبَتِهَا وَمَكَانِهَا.

تَبَوَّأَتْ طُفُوسُ الْأَخْلَافِ مَكَانَةَ سَامِقَةٍ فِي السَّاحَةِ الدِّينِيَّةِ الْجَاهِلِيَّةِ، وَعَلَى الْأَصْعَدَةِ كَافَّةً، فَمِنْ إِبْرَاهِيمَ فِي أَمَاكِنِهِمُ الْمُقَدَّسَةِ إِلَى تَوْثِيْقِهَا كِتَابَةً وَتَعْلِيْقِهَا عَلَى جُدْرَانِ الْمَعَابِدِ، وَمِنْ عَمَسِ أَيْدِيهِمْ

(1) التكوين، 26: 29.

(2) التكوين، 31: 45.

(3) يُنظَرُ: فريزر، جيمس، الفلكلور في العهد القديم، ج 1، ص 235.

(4) يُنظَرُ: المرجع السابق، ج 1، ص 257.

(5) القرطبي، محمد بن أحمد الأنصاري، الجامع لأحكام القرآن، بيروت، دار الفكر، دت، ج 5، ص 147.

(6) النساء، الآية 33.

(7) الأنفال، الآية 75.

(8) يُنظَرُ: القرطبي، محمد بن أحمد الأنصاري، الجامع لأحكام القرآن، ج 5، ص 146-147.

(9) السواح، فراس، الأسطورة والمعنى، دمشق، دار علاء الدين، ط 2، 2001، ص 129.

بالسوائل المقدّسة كالدّم والماء والطيب إلى إضرامهم نارَ التّعاهد والتّحالف، ومن الاستقسام بالأباء والأصنام إلى تقديمهم القرابين وإعدادهم الموايد المقدّسة.

أماكن إبرام الأَحلافِ

اتّخذَ الجاهليُّ من الأماكن المقدّسة ساحةً لعقدِ أَحلافِهِ، فكانَ أنْ أبرمها أمامَ الأصنامِ وفي المعابد، ويكُونُ ذلكَ بإشرافِ سادين الصنمِ وكاهنِ المعبدِ على عقدها وتوثيقها⁽¹⁾، ومن تَلَكُم الأَحلافِ المُبرمةِ في المعابدِ حلفَ قارظ، حيثُ شدَّ خالد بن الحارث أبو قارظ لعبدِ عوف بن عبد بن الحارث الحلف في الحَرَمِ عندَ البَيْتِ⁽²⁾، فكانَ منْ عادَتِهِم - خاصّةً أهل مكة - ، أن يتحالفوا عندَ الرُّكنِ مِنَ الكعبةِ، فيضعُ المتحالفون أيديهم عليه، ثم يحلفوا⁽³⁾.

كما اعتادَ الجاهليُّ عقْدَ أَحلافِهِ عندَ الجبال، فكانَ مِنْها حلفُ قريش الأَحابيش، "حيثُ اجتمعت بنو الحارث بن عبد مناة بن كنانة، وبنو المصطلق، والحيا بن سعد بن عمرو، وبنو الهون بن خزيمه حين تحالفت بذيئ حبشي، وهو جبل بأسفل مكة"⁽⁴⁾، ويذكرُ الجاحظُ أن من عادة العرب عند التّحالفِ أن يذكُرَ كلَّ قومٍ جبالهم، والمشهور من جبالهم⁽⁵⁾.

لَمْ يَكُنِ الجِبَلُ في نظَرِ البُدائيِّ مُجرّدَ مُرتفعٍ سامقٍ يتضاءلُ حجماً أمامه حسب، بل أخذَ مِخْيَالَهُ في شَتَى التّقااتِ يَنسُجُ مُخْتَلَفَ الأساطيرِ حَوْلَهُ، فظهر "في بعض المقاطع من أساطير الخلق على أنه العنصرُ بواسطته استقرت الأرض بعدما كانت تميذ كالسّفينةِ في اليمِّ"⁽⁶⁾، وفي التّكوينِ السومريِّ "ظهرت جزيرةٌ على هيئةِ جِبَلٍ قُبَّه السَّماءُ وقاعدته الأرض، ومن لقاء القُبَّةِ بالقاعدة ظهرَ الهوّاءُ العنصرُ المادّيُّ الثالثُ بعدَ المياه والنّراب"⁽⁷⁾، كما تُظهِرُ إشارةٌ إلى جِبَلِ السَّماءِ والأرضِ في مطلعِ أسطورةِ سومريةٍ تحكي عن خَلْقِ الإنسان⁽⁸⁾.

في جِبَلِ السَّماءِ والأرضِ

أُنْجَبَ (أَنْ) أَتْبَاعَهُ الأَنْونَكي

وقد اعتمدَ المَصْرِيّونَ بالرّايبةِ الأولى التي بدأت الخليفةَ علّيها، وعبروا عنها تَعْبِيرًا مِعْماريًا، فكان المرءُ يرقى بضع درجاتٍ، أو يصعدُ مُرتفعًا عند كلِّ مدخلٍ يؤدّي إلى قُدسٍ

(1) يُنظَر: علي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج4، ص385.

(2) يُنظَر: البغدادي، محمد بن حبيب، المنمق في أخبار قريش، ص239.

(3) علي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج4، ص381.

(4) المصدر السابق، 229.

(5) يُنظَر: الجاحظ، عمرو بن بحر، الحيوان، تحقيق: عبد السلام هارون، القاهرة، مكتبة ابن سينا، ط1، 2013، ج4، ص287.

(6) عجيبة، محمد، موسوعة أساطير العرب عن الجاهلية ودلالاتها، بيروت، دار الفارابي، طبعة منقحة - في مجلد واحد-، 2005، ص236.

(7) السواح، فراس، مغامرة العقل الأولى، دمشق، دار علاء الدين، ط13، 2007، ص33.

(8) المرجع السابق، ص34.

الأقداس لِتَكُونَ الرَّابِيَةُ الْأُولَى فِيهِ⁽¹⁾، كَمَا "كَانَ مَسْكَنَ الْأَلْهَةِ وَمَكَانَ إِقَامَتِهَا، وَالْمَوْطَنَ الطَّبِيعِيَّ لِنَشَاطِهَا"⁽²⁾، "فِي الْمِيثُولُوجِيَا الْيُونَانِيَّةِ يَسْكُنُ (زِيُوس) جَبَلُ الْأَوْلَمِب"⁽³⁾، وَفِي الْعَهْدِ الْقَدِيمِ، يَخْتَارُ الرَّبُّ جَبَلًا صَهِيُونًا سَكَنَى لَهُ، جَاءَ فِي الْمَزْمُورِ (68): "جَبَلٌ بِأَشَانِ يَا جَبَلُ الْأَعَالِي، لِمَاذَا يَا قِمَمَهُ الْعَالِيَةَ تَرُصِدِينَ جَبَلًا صَهِيُونًا بَازِدِرَاءَ، وَاللَّهُ ارْتَضَاهُ مَقَامًا لَهُ، بَلْ إِلَى الْأَبَدِ يَسْكُنُهُ الرَّبُّ"⁽⁴⁾، الْأَمْرُ الَّذِي جَعَلَ "لِلْجَبَلِ حُرْمَةً حَظَرَتْ عَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يَمَارِسَ الْجَنَسَ فِيهِ، أَوْ يَلْحَقَ الصِّيَادُ فَرِيَسَتَهُ"⁽⁵⁾، كَمَا نَظَرَ إِلَيْهِ وَسِطًا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْفُؤَسِيِّ، فَأَنْشَأَ الْمَعَابِدَ، وَدَسَّنَ الْمَذَابِيحَ، الْمَذَابِيحَ، وَقَدَّمَ الْقَرَابِيْنَ عَلَى رَأْسِهِ. وَفِي بَحْثِهِ عَنِ الْخُلُودِ "يَصِلُ جَلْجَامِشٌ إِلَى سِلْسِلَةِ جِبَالٍ مَاشُوَ الَّتِي تَحْرُسُ دُرَاهَا الْمُتَقَابِلَةَ الْفُؤَهَةَ الَّتِي تَنْزِلُ مِنْهَا الشَّمْسُ إِلَى بَاطِنِ الْأَرْضِ لِتَسِيرَ مَسَارَهَا اللَّيْلِيَّ قَبْلَ شُرُوقِهَا مِنَ الطَّرَفِ الْآخَرِ"⁽⁶⁾، وَفِي الْمِيثُولُوجِيَا الْهِنْدِيَّةِ تَقُولُ الْمَلْحَمَةُ⁽⁷⁾:

لَا تَقْتَرِبُ مِنَ الْجَبَلِ، فِيهِ قُوَّةٌ ذَاتِيَّةٌ رَهْبِيَّةٌ

وَفَوْقَهُ تَمَامًا يَرْمِي النُّجْمَ الْقَطْبِيَّ مِيزَانَهُ

وَفِي قَدْرَةِ نَشْوئِهَا، "اسْتُخْدِمَتِ الْكَنِيسَةُ الْعَدِيدَ مِنْ مَوَاقِعِ الْمَقَامَاتِ الْمُقَدَّسَةِ عَلَى ذُرَى الْمُرْتَفَعَاتِ فِي سُورِيَا، وَبُنَتْ عَلَيْهَا كِنَائِسٌ صَغِيرَةٌ"⁽⁸⁾.

كِتَابَةُ الْأَحْلَافِ وَتَوْثِيقُهَا

تَبَوَّأَتِ كِتَابَةُ الْأَحْلَافِ وَتَوْثِيقُهَا مَكَانَةً مُنْقَدِّمَةً مِنْ بَيْنِ مَا عُهِدَ لِلْعَرَبِ أَنْ كَتَبُوهُ، فَكَانَتِ الْكُتُبُ الدِّينِيَّةُ، وَالْأَحْلَافُ وَالْعَهُودُ وَالْمَوَاقِفُ فِي طَلِيعَةِ تَلَكُمِ الْمَوْضُوعَاتِ⁽⁹⁾، حَيْثُ "دَعَتِ الْعَرَبُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ مَنْ يَكْتُبُ لَهُمْ ذِكْرَ الْحَلْفِ تَعْظِيمًا لِلْأَمْرِ وَتَبَعِيًّا مِنَ النَّسِيَانِ"⁽¹⁰⁾، وَقَدْ أَقْتَرَنْتِ كِتَابَتُهَا بِالْكِتَابَاتِ الدِّينِيَّةِ، فَيُذَكِّرُ الْجَاحِظُ "أَنَّهُ لَا يَقَالُ لِلْكَتُبِ مَهَارِقَ حَتَّى تَكُونَ كِتَابَ دِينٍ، أَوْ كِتَابَ عَهْدٍ وَمِيثَاقٍ"⁽¹¹⁾.

(1) يُنظَرُ: فِرَانِكُفُورْت، هِنْرِي، مَا قَبْلَ الْفَلَسْفَةِ، تَرْجَمَةُ: جِبْرَا إِبْرَاهِيمَ جِبْرَا، بِيْرُوت، الْمَوْسُوسَةُ الْعَرَبِيَّةُ لِلدِّرَاسَاتِ وَالنَّشْرِ، ط3، 1982، ص34-35.

(2) الدِيك، إِحْسَان، صَدَى الْأَسْطُورَةِ وَالْآخَرُ فِي الشَّعْرِ الْجَاهِلِي، بَاقَا الْغَرْبِيَّةِ، مَجْمَعُ الْقَاسِمِي لِللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ، ط1، 2013، ص69.

(3) نَعْمَةُ، حَسَن، مَوْسُوعَةُ الْمِيثُولُوجِيَا وَأَسَاطِيرِ الشُّعُوبِ الْقَدِيمَةِ، ص37.

(4) الْمَزْمُورُ، 17:68.

(5) نَعْمَةُ، حَسَن، مَوْسُوعَةُ الْمِيثُولُوجِيَا وَأَسَاطِيرِ الشُّعُوبِ الْقَدِيمَةِ، ص37.

(6) السَّوَّاحُ، فِرَاسُ، جَلْجَامِشُ، مَلْحَمَةُ الرَّافِدِيْنَ الْخَالِدَةِ، دَمَشَقُ، دَارُ عِلْمِ الدِّينِ، ط2، 2002، ص36.

(7) نَعْمَةُ، حَسَن، مَوْسُوعَةُ الْمِيثُولُوجِيَا وَأَسَاطِيرِ الشُّعُوبِ الْقَدِيمَةِ، ص37.

(8) السَّوَّاحُ، فِرَاسُ، الْأَسْطُورَةُ وَالْمَعْنَى، ص139.

(9) يُنظَرُ: الْأَسَدُ، نَاصِرُ الدِّينِ، مَصَادِرُ الشَّعْرِ الْجَاهِلِي وَقِيَمَتِهَا التَّارِيخِيَّةِ، عَمَّانُ، دَارُ الْفَتْحِ لِلدِّرَاسَاتِ وَالنَّشْرِ، ط9، 2010، ص75-79.

(10) الْجَاحِظُ، عَمْرُو بْنُ بَحْرٍ، الْحَيَوَانُ، ج1، ص75.

(11) الْمَصْدَرُ السَّابِقُ، ج1، ص75.

وَيَسْتَنْزِلُ الشَّعْرُ الْجَاهِلِيَّ فِي إِسَارَاتِهِ إِلَى كِتَابَةِ الْعَهودِ وَالْأَحْلَافِ، قَالَ الْأَعشى شَائِدًا بِمَمْدُوجِهِ⁽¹⁾:

رَبِّي كَرِيمٌ لَا يُكَدِّرُ نَعْمَةً وَإِذَا يُنَاشِدُ بِالْمَهَارِقِ أَنْشَادًا

وأشار الحارث بن حلزة في معلقته إلى حلف ذي المجاز، وهو الذي جمع به عمرو ابن هند بين بكر وتغلب، فأصلح بينهما، إشارةً يُدَكِّرُ فيها بني تغلب ألا تتعدى على ما تعاقدوا عليه، ووَثَّقوه في المهارق، قال⁽²⁾:

وَأدَّكُرُوا حَلْفَ ذِي الْمَجَازِ وَمَا فُؤدِّ مَ فِيهِ الْعُهُودُ وَالْكَفَـلَاءُ

حَدَرَ الْجَوْرِ وَالتَّعَدَى وَهَلْ يَنْـ فُضُّ مَا فِي الْمَهَارِقِ الْأَهْوَاءُ

وقال درهم بن زيد الأوسي يَدَكِّرُ الخَزْرَجَ ما بيئهم من عهودٍ مكتوبةٍ على الصُّحفِ⁽³⁾:

وَإِنَّ مَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ حِينَ يُقَالُ: الْأَرْحَامُ وَالصُّحُفُ

وقال قيس بن الخطيم مُشِيرًا إلى العهود والمواثيق المُسَجَّلَةِ بالصُّحفِ⁽⁴⁾:

لَمَّا بَدَتْ عُذُوةٌ جِبَاهَهُمْ حَنَّتْ إِلَيْنَا الْأَرْحَامُ وَالصُّحُفُ

وفي مَوْضِعٍ آخَرَ، قال مُشِيرًا إلى كتابِ التَّحَالُفِ بِالْأَدِيمِ الْمُمَدَّدِ⁽⁵⁾:

لَعَمْرِي لَقَدْ حَالَفْتُ دُبْيَانَ كُلَّهَا وَعَبَسَا عَلَى مَا فِي الْأَدِيمِ الْمُمَدَّدِ

وَأَمَّ يَقِفِ الْأَمْرِ عَلَى كِتَابَةِ الْحَلْفِ وَتَوَثُّيقِهِ حَسَبَ، بَلْ عَمَدُوا إِلَى تَعْلِيقِ تِلْكَمِ الْكُتُبِ عَلَى جُدْرَانِ الْمَعَابِدِ تَوْكِيدًا عَلَى أَنْفُسِهِمْ، وَتَعْظِيمًا لِمَا قُبِدَ فِيهَا حَتَّى كَانَتْ مِنَ الْمَعَالِيقِ. وَمِنْ أَشْهُرِ الْأَحْلَافِ الَّتِي عُلِّقَتْ مَهَارِقُهَا صَحِيفَةً قَرِيشَ الَّتِي "تَعَاقدوا فِيهَا عَلَى بَنِي هَاشِمٍ، وَبَنِي الْمَطْلَبِ عَلَى أَنْ لَا يَنْكحُوا إِلَيْهِمْ وَلَا يَنْكحُوهُمْ وَلَا يَبِيعُوهُمْ شَيْئًا وَلَا يَبْتَاعُوا مِنْهُمْ"⁽⁶⁾، ثُمَّ "تَعَاهَدُوا عَلَى ذَلِكَ وَخَتَمُوا عَلَى الصَّحِيفَةِ بِثَمَانِينَ خَاتَمًا وَعَلَّقُوهَا فِي جَوْفِ الْكَعْبَةِ"⁽⁷⁾، كَمَا عُلِّقَ كِتَابُ حَلْفِ خِزَاعَةَ لِعَبْدِ الْمَطْلَبِ فِي الْكَعْبَةِ، فَكَانَ الْكِتَابُ⁽⁸⁾:

(1) الأعشى الكبير، ميمون بن قيس، ديوانه، ص229.

(2) الزوزني، عبدالله الحسن بن أحمد، شرح المعلقات السبع، تحقيق: محمد عبد القادر الفاضلي، بيروت، المكتبة العصرية، ط1، 2001، ص239.

(3) الأسد، ناصر الدين، مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية، ص80.

(4) قيس بن الخطيم، ديوانه، تحقيق: ناصر الدين الأسد، بيروت، دار صادر، دت، ص117.

(5) المصدر السابق، ص127.

(6) ابن هشام، السيرة النبوية، تحقيق: مصطفى السقا وآخرين، دمشق، دار ابن كثير، ط3-في مجلد واحد، 2005، ص309.

(7) اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب، تاريخ اليعقوبي، تحقيق: عبد الأمير مهنا، بيروت، شركة الأعلمي للطبوعات، ط1، 2010، ص350.

(8) البغدادي، محمد بن حبيب، المنمق في أخبار قريش، ص87-88.

هذا ما تحالف عليه عبد المطلب ورجالاً بني عمرو من خزاعة، ومن معهم من أسلم ومالك، تحالفوا على التناصر والمؤاساة حلفاً جامعاً غير مفرق الأشياخ على الأشياخ، والأصاغر على الأكابر، والشاهد على الغائب، تعاهدوا وتعاقدوا ما شرفت الشمس على ثبير، وما حن بفلاة بعير، وما قام الأخشبان، وما عمر بمكة إنسان، حلف أبدي، لطول الأمد، يزيد طلوع الشمس شداً، وظلم الليل مداً، عقده عبد المطلب بن هاشم، ورجال بني عمرو، فصاروا يداً دون بني النضر، فعلى عبد المطلب النصرة لهم على كل طالب وتر، في بر أو بحر، أو سهل أو وعر، وعلى بني عمرو النصرة لعبد المطلب لأولاده على جميع العرب، في الشرق أو الغرب، أو الحزن أو السهب⁽¹⁾. يظهر أن تقليد تعليق كتاب الحلف في الأماكن الدينية قد استمر في الإسلام، فكان من هارون الرشيد أن يأمر بتعليق كتابي حلف العهد لولديه عبد الله ومحمد، فيجعلان داخل الكعبة، قبالة بابها مع المعاليق التي فيها، وصنع لهما قصبتيان من ذهب، فكلوهما بفصوص الياقوت والزبرجد واللؤلؤ⁽²⁾.

سوانل الإبرام المقدسة

للسوانل المقدسة في عقيدة الحلف طقوس خاصة، تتمثل بعمس أيديهم بتلك السوانل، أو شربها، أو لعقها بعد أن كانوا يمسحون بها جذران المعبد أحياناً، أو أن يعمدوا إلى جذرانها، فيمسحوها بأيديهم المصطبغة بتلك السوانل أحياناً آخر. ولعل أبلغ ما يؤكد أهمية هاتيك السوانل وطقوسها أن أغلب الأحلاف التي وصلتنا أخبارها عن الجاهلية إنما دعت بالسوانل الذي تحالفوا عليه⁽³⁾، ويعود اختياره إلى العقيدة التي يصدرون منها، حيث تستدعي سائلاً دون غيره فمن هذه السوانل الماء، حيث اتفق لمن تعاقدوا حلف الفضول "أن عمدوا إلى ماء من زمزم، فجعلوه في جفنة، ثم بعثوا به إلى البيت، فغسلت به أركانه، ثم أتوا به فشربوه"⁽⁴⁾.

يعد الماء أنموذجاً بدنياً أصيلاً، وموتيفاً ميثياً قديماً، هو الأول والأخر لأنه رمز لبداية الكون ونهايته، فكان بداية البداية حيث تؤكد الأساطير القديمة على فكرة الميلاد المائي، بظهور النشأة الأولى، وبداية عملية الخلق والتكوين من لجة الظلمة الأزلية في الهاوية والأعماق من المياه الأولى/ الغمر⁽⁵⁾، كما كان نهاية النهاية، "فاعتقد المصريون أن على الشمس والموتى أن

(1) لاحظ ذكر جبل ثبير، وما بعده الأخشبان، وحضور الثيمات الميثولوجية كالشمس والليل واليد، والمبالغات المرجو منها تهويل أمر الحلف وتعظيم شأنه.

(2) الأزرق، محمد بن عبد الله، أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، تحقيق: رشدي ملحس، بيروت، دار الأندلس، ط1، 1996، ج1، ص234.

(3) فمنها على سبيل التمثيل: المطيبون، ولعقة الدم، والرباب.

(4) الأصفهاني، أبو الفرج، الأغاني، تحقيق: إحسان عباس وآخرين، بيروت، دار صادر، ط3، 2008، ج17، ص209. فجيء بالماء من موضع مقدس، ثم غسل به موضع مقدس ليزداد قداسة، ثم كان منهم أن شربوه تعظيماً لأمر الحلف، وتخليداً له، ثم لجعله يسري في أرواحهم، لما في الماء من صفات انماز بها، كما سيظهر الآن.

(5) يُنظر: الديك، إحسان، الأسطورة في فكر الجاهلي وأدبه، باقا الغربية، مجمع القاسمي للغة العربية، ط1، 2016، ص40-43.

يَعْبُرُوا مِيَاهَ الْهَيُولِي (النَّون) (1)، وَعِنْدَ السُّومَرِيِّينَ، "أَوَّلُ مَا يَتَكَوَّنُ مِنْهُ الْعَالَمُ السَّقْلِيُّ نَهْرٌ (أَيُّ لَوْ رَوَى كَيْ) الَّذِي يَعْبرُ مِنْهُ الْإِنْسَانُ، وَفِيهِ مَرَاكِبٌ وَمَلَاخٌ لِنَقْلِ أَرْوَاحِ الْمَوْتَى" (2)، وَعِنْدَ الْبَابِلِيِّينَ "تُنْقَلُ الرُّوحُ مِنَ الْقَبْرِ إِلَى مِيَاهِ الْعَمْرِ عِبْرَ نَهْرِ (هَابور) (3). وَقَدْ اعْتَبِرَ الْكُتُبُ الْحَيَاةِ وَالْخُلُودِ، فَهُوَ السَّائِلُ السَّحْرِيُّ الَّذِي يَنْبَدِي فِي عَدِيدٍ مِنَ الْحِكَايَاتِ عَلَى مَوْتَيْفٍ يَبِيعُ بِالْبَطْلِ لِإِحْضَارِهِ مِنْ بئرٍ أَوْ بَسْتَانٍ أَوْ بُحَيْرَةٍ أَوْ نَهْرٍ بَعِيدٍ جَدًّا لِيُنَالَ الْخُلُودَ (4). وَكَانَ مِنْهُمْ مَنْ تَحَالَفُوا بِعَمْسِ أَيْدِيهِمْ بِالْدمِّ ثُمَّ لَعَفَهُ، فَجَاءَ فِي أَمْرٍ حَلْفَ لَعْفَةِ الدَّمِّ أَنْ "عَمَدَتْ بَنُو سَهْمِ بْنِ عَمْرٍو، فَتَحَرَّتْ جَزورًا وَقَالَتْ: مَنْ كَانَ مَعَنَا فَلْيُدْخِلْ يَدَيْهِ فِي دَمِّ هَذَا الْجَزورِ، فَأَدْخَلَتْ عِنْدَ الدَّارِ أَيْدِيهَا، وَمَخْزومٌ، وَعَدِيُّ، وَجَمَحٌ، وَسَهْمٌ، ثُمَّ قَامَ الْأَسْوَدُ بَيْنَ حَارَتِهِ، فَأَدْخَلَ يَدَهُ فِي الدَّمِّ، ثُمَّ لَعَفَهَا، فَسُمُوا لَعْفَةَ الدَّمِّ" (5).

يبدو أن طُقَسَ غَمَسِ الْمُتَحَالِفِينَ أَيْدِيَهُمْ بِالْدمِّ عِنْدَ التَّحَالِفِ قَدْ كَانَ سَائِدًا عِنْدَ الْبُدَائِيَّةِ، فَفِي قِبَالِ (الشَّيْبَانِيَّةِ) إِذَا شَاءَتْ قِبَلَتَانِ أَنْ تَتَحَالَفَا فَيُنَاقِلَانِ وَتُحْضِرَانِ مَعَهُمَا ثُورًا أَلِيْفًا، ثُمَّ يَمْسِكُ زَعْمَاءُ كُلِّ قَبِيلَةٍ بِرُمْحٍ وَيَقْفَانِ عَلَى جَانِبِي الثَّورِ وَيَصُوبَانِ الرَّمْحَ إِلَى قَلْبِهِ، ثُمَّ يَغْمَسُ زَعْمَاءُ الطَّرْفَيْنِ وَشِيُوخُهُمْ أَيْدِيَهُمْ فِي دَمِهِ (6). وَعِنْدَ اسْتِعْرَاضِ مَوْرُوثَاتِ الْمَنْطِقَةِ، مَنْطِقَةُ الشَّرْقِ الْقَدِيمِ، يَظْهَرُ أَنَّ هَذَا الطَّقُسَ قَدْ كَانَ مِنْ طَّقُوسِ إِبرَاهِيمَ الْعَهْدِ السَّائِدَةِ فِيهَا، فَفِي عَقْدِ الْعَهْدِ بَيْنَ اللَّهِ وَبَنِي إِسْرَائِيلَ، جَاءَ فِي سِفْرِ الْخُرُوجِ: "وَأَرْسَلْتُ (7) شُبَّانًا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَأَصْعَدُوا مَحْرَقَاتٍ وَذَبَحُوا ذَبَائِحَ سَلَامَةٍ مِنَ الْعِجُولِ لِلرَّبِّ (8)، فَأَخَذَ مُوسَى نِصْفَ الدَّمِّ وَصَبَّهُ فِي أَجْرَانِ، وَرَشَّ النِّصْفَ الْأَخْرَ عَلَى الْمَذْبَحِ، وَأَخَذَ كِتَابَ الْعَهْدِ وَتَلَاهُ عَلَى مَسَامِعِ الشَّعْبِ، فَقَالُوا: كُلُّ مَا تَكَلَّمَ الرَّبُّ بِهِ نَعْمَلُهُ وَنَأْتِمِرُ بِهِ، فَأَخَذَ مُوسَى الدَّمَ وَرَشَّهُ عَلَى الشَّعْبِ وَقَالَ: هَذَا هُوَ دَمُ الْعَهْدِ الَّذِي عَاهَدْتُكُمْ الرَّبُّ بِهِ عَلَى جَمِيعِ هَذِهِ الْأَقْوَالِ" (9).

جَرَتْ عَقِيدَةُ الدَّمِّ فِي الْأَحْلَافِ مَجْرَى الْمَاءِ فِي مَسِيلِهِ، وَالدَّمُّ فِي عُرُوقِهِ، حَتَّى وَإِنْ لَمْ يَغْمَسْ بَعْضُهُمْ يَدَهُ فِيهِ، فَاسْتَبَدَّلُوا بِهِ سَائِلًا غَيْرَهُ، فَمَا مِنْ حَلْفِ أِبْرَمَ، وَلَا عَقْدِ وَثَقٍ إِلَّا وَيَتَعَاقَدُ أَهْلُهُ بِالْأَيْمَانِ الْمُغْلَظَةِ عَلَى الدَّمِّ (10)، ذَلِكَ حَتَّى يُوْتَقَ عَصَبِيَّةً، وَيُورَثَ خُرْمَةً فِيمَا بَيْنَهُمْ. وَمِنْهُمْ مَنْ تَحَالَفُوا بِعَمْسِ أَيْدِيهِمْ بِالرَّبِّ، فَكَانَ مِنْ أَحْلَافِهِمُ الرَّبَابُ، "وَهُمْ تَيْمٌ، وَعَدِيُّ، وَعَعْلٌ، وَإِنَّمَا

(1) فرانكفورت، هنري، ماقبل الفلسفة، ص36.

(2) الماجدي، خزعل، متون سومر، عمان، الأهلية للنشر والتوزيع، ط1، 1998، ص304.

(3) السواح، فراس، مغامرة العقل الأولى، ص221.

(4) يُنظَر: عبد الحكيم، شوقي، موسوعة الفلكلور والأساطير العربية، بيروت، دار العودة، ط1، 1982، ص607.

(5) ابن بكار القرشي، الزبير، جمهرة نسب قريش وأخبارها، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 2010، ج2، ص61.

(6) يُنظَر: فريزر، جيمس، الفلكلور في العهد القديم، ج2، ص243.

(7) يعني موسى

(8) لاحظ: عقد العهد، وتقديم الذبائح على الجبل.

(9) الخروج، 24: 5-9.

(10) سيظهر ذلك بشكلٍ جليٍّ عند استعراض الدراسة نصوص الاستقسام.

سَمُوا رَبَابًا لِأَنَّهُمْ جَاؤُوا بِرُبِّ، فَأَكَلُوا مِنْهُ، وَغَمَسُوا فِيهِ أَيْدِيَهُمْ، وَتَحَالَفُوا عَلَيْهِ⁽¹⁾. يَنْضَافُ إِلَى هَاتِيكَ السَّوَائِلِ الْمَلْحُ وَالرَّمَادُ، فَيَذْكَرُ الْبِلَازِرِيَّ: "وَكَانَتْ الْعَرَبُ إِذَا تَحَالَفَتْ غَمَسَتْ أَيْدِيَهُمْ فِي الْمَلْحِ وَالرَّمَادِ"⁽²⁾، كما "قال أبو العباس: الْعَرَبُ تُعْظِمُ أَمْرَ الْمَلْحِ وَالنَّارِ وَالرَّمَادِ"⁽³⁾. يَخَالُ الْبَاحِثُ أَنَّ لِلْمَلْحِ فِي عَقِيدَةِ الْجَاهِلِيِّينَ صِلَةً وَثِيقَةً بِتَعْظِيمِ الْحُرْمَةِ فِيهِمَا بَيْنَهُمْ، وَالتِّي تَبْلُغُ مَبْلَغَ حُرْمَةِ الدَّمِ وَالنَّسَبِ، فَيُقَالُ: "بَيْنَ فُلَانٍ وَفُلَانٍ مَلْحٌ، وَمِلْحَةٌ إِذَا كَانَ بَيْنَهُمَا حُرْمَةٌ"⁽⁴⁾، وَالْمَلْحُ الرَّضَاغُ، قَالَ الشَّاعِرُ⁽⁵⁾:

وَإِنِّي لَأَرْجُو مِلْحَهَا فِي بَطُونِكُمْ وَمَا بَسَطَتْ مِنْ جِلْدٍ أَشَعَّتْ أَغْبَرَا

"وجاء في حديثٍ وَفَدٍ هَوَازَنَ أَنَّهُمْ كَلَّمُوا رَسُولَ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) في سبني عشائريهم، فقال خَطِيْبُهُمْ: إِنَّا لَوْ كُنَّا مَلْحَنَا لِلْحَرِثِ بْنِ أَبِي شَمْرٍ أَوْ لِلنُّعْمَانِ بْنِ الْمَنْذَرِ، ثُمَّ نَزَلَ مِنْزَلُكَ هَذَا مِنَّا لَحَفِظَ ذَلِكَ لَنَا"⁽⁶⁾، أَي لَوْ كُنَّا أَرْضَعْنَاهُ، أَمَا الرَّمَادُ، فَيَبْدُو أَنَّ لَهُ صِلَةً بِبَيْنِهِمْ لِتَكُونُ لِتَكُونَ طَوِيلَةً الْأَمَادِ، وَالَّذِي يُسْتَمَدُّ مِنْ نَارِ التَّحَالْفِ.

نَارُ التَّحَالْفِ

أُولِعَ الْعَرَبُ بِإِيقَادِ النَّيرانِ وَتَعْظِيمِ شَأْنِهَا، فَقَدِ اعْتَادُوا إِضْرَامَهَا فِي مُنَاسَبَاتٍ جَلِيلَةٍ حَتَّى عَدَّتْ لِكُلِّ مِنْهَا صَبْعَةً طُقُوسِيَّةً خَاصَّةً⁽⁷⁾، وَقَدِ اتَّفَقُوا عَلَى إِضْرَامِهَا عِنْدَ التَّحَالْفِ، "فَكَانُوا لَا

- (1) اللسان، "رَبِّبٌ".
- (2) البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر، أنساب الأشراف، تحقيق: سهيل زكار وآخر، بيروت، دار الفكر، ط1، 1996، ج1، ص63.
- (3) اللسان، "مَلْحٌ".
- (4) اللسان، "مَلْحٌ".
- (5) ابن دريد، محمد بن الحسن، الاشتقاق، ص452.
- (6) اللسان، "مَلْحٌ".
- (7) في كتابه الحيوان، يستطرد الجاحظ في الحديث عن نيران العرب، فيذكر منها نار الاستمطار، وهي النار التي كانوا يستمطرون بها في الجاهلية الأولى، فإنهم إذا تناهت عليهم الأزمات، وركد عليهم البلاء، واشتدَّ الجَدْبُ، واحتاجوا إلى الاستمطار، اجتمعوا وجمعوا ما قدروا عليه من البقر، ثم عقدوا في أذنانها وبين عراقيها السِّلْعَ والعُشْرَ، ثم صعدوا بها في جبلٍ وعرٍ وأشعلوا فيها النَّيرانَ، وضجَّوا بالدعاء والتضرُّع، ومنها نار المسافر التي كانوا ربما يوقدونها خلف المسافر الذي لا يحبون رجوعه، ومنها نار الصيد التي توقد للظباء وصيدها لتعشى إذا أدامت النَّظْرَ، ومنها نار الحرَّتين التي كانت ببلاد بني عيس فإذا كان الليل فهي نار تسطع في السماء، وإذا كان النهار فإنما هي دخان يفور، فيبعث الله خالد بن سنان، فاحترق لها بنزلاً، ثم أدخلها فيها، ثم اقتحم فيها حتى غيَّيها، كما جعلوا للكائنات اللامرئية نيراناً فكانت نار السعالي والجن والغيلان. راجع: الجاحظ، عمرو بن بحر، الحيوان، ج4، ص284-296. وَمَنْ النَّيرانِ الْعَجِيبَةِ كَذَلِكَ نَارِ الْقَرَبَانِ، وَهِيَ نَارٌ عَجِيبَةٌ خَلَقَهَا اللَّهُ لِقَبُولِ الْقَرَبَانِ، تَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ تَأْكُلُ الْقَرَبَانَ الْمَقْبُولَ، وَهِيَ الَّتِي أَكَلَتْ قَرَبَانَ هَابِيلَ دُونَ قَرَبَانَ قَابِيلَ. القزويني، زكريا بن محمد بن محمود، عجائب المخلوقات وخرائب الموجودات، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط1، 1989، ص67، وهي النار التي عناها الله عز وجل في تعليق اليهود إيمانها بالرسول (ﷺ) إلى أن يأتيهم بقربان تأكله النار، قال تعالى: (الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهْدُ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ). آل عمران، الآية 183. يُنظَرُ: الطُّبْرِي، محمد بن جرير، تفسير الطبري، القاهرة، دار المعارف، دت، ص449-451.

يَعْتَدُونَ حَلْفَهُمْ إِلَّا عِنْدَهَا، فَيَذْكُرُونَ عِنْدَ ذَلِكَ مَنَافِعَهَا، وَيَدْعُونَ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِالْحَرْمَانِ وَالْمَنَعِ مِنْ مَنَافِعِهَا عَلَى الَّذِي يَنْقُضُ عَهْدَ الْحَلْفِ، أَوْ يَخِيْسُ بِالْعَهْدِ"⁽¹⁾، كما كان مِنْ مَبْلَغِهَا أَنْ جَعَلُوا لَهَا سَدَنَةً يُسْرِفُونَ عَلَى إِضْرَامِهَا، وَالْحَلْفِ بِهَا، "فَكَانَتْ لَهُمْ نَارٌ يُقَالُ إِنَّهَا كَانَتْ بِأَشْرَافِ الْيَمَنِ، لَهَا سَدَنَةٌ، فَإِذَا تَفَاقَمَ الْأَمْرُ بَيْنَ الْقَوْمِ فَحَلَفَ بِهَا انْقَطَعَ بَيْنَهُمْ، وَكَانَ سَادِنُهَا إِذَا أَتَى بِرَجُلٍ هَيَّبَهُ مِنْ الْحَلْفِ بِهَا، وَكَانَ اسْمُهَا (هولة) و (المهولة)"⁽²⁾.

وإلى نارِ المَهولِ، قالَ أوس بن حجر يَصِفُ جِمَارَ وَحشٍ⁽³⁾:

إِذَا اسْتَقْبَلْتَهُ الشَّمْسُ صَدَّ بِوَجْهِهِ كَمَا صَدَّ عَنِ نَارِ الْمَهُولِ حَالِفٌ
كَمَا أَشَارَ إِلَيْهَا الْكُمَيْتُ⁽⁴⁾:

هُمُ خَوْفُونِي بِالْعَمَى هَوَّةَ الرَّدَى كَمَا شَبَّ نَارَ الْحَالِفِينَ الْمَهُولِ
وَفِي مَوْضِعٍ آخَرَ، قَالَ يَذْكُرُ امْرَأَةً⁽⁵⁾:

فَقَدْ صِرْتُ عَمَّا لَهَا بِالْمَشِيءِ سَبِّ زَوْلاً لَدَيْهَا هُوَ الْأَزُولُ
كَهَوْلَةِ مَا أَوْقَدَ الْمُحْلِفُو نَ لِلْحَالِفِينَ وَمَا هَوَّالُوا

وَكَانَ مِنْ أَحْلَافِهِمِ الْمِحَاشُ، "وَهُمْ صِرْمَةٌ، وَسَهْمًا وَمَالِغًا بَنِي مُرَّةَ بْنِ عَوْفِ بْنِ سَعْدِ بْنِ ذُبْيَانَ بْنِ بَغِيضٍ، وَضَبَّةَ بْنِ سَعْدٍ، وَإِنَّمَا سُمُوا مِحَاشًا لِأَنَّهُمْ اجْتَمَعُوا عِنْدَ النَّارِ، فَتَحَالَفُوا بِهَا"⁽⁶⁾، وَفِيهِمْ قَالَ النَّابِغَةُ⁽⁷⁾:

جَمَعَ مِحَاشَكَ يَا زَيْدُ فَإِنِّي أَعَدْتُ بِرَبُوعًا لَكُمْ وَتَمِيمًا

تَبَوَّاتِ النَّارُ مَكَانَةً دِينِيَّةً مَرْمُوقَةً فِي شَتَّى الدِّيَانَاتِ، وَعَلَى الصَّعِيدَيْنِ الْعَقْدِيِّ وَالطَّفْسِيِّ، فَكَانَتْ أَوْلَ مُقَدَّسٍ اِحْتَاكَ بِهِ الْإِنْسَانُ، اِنْعَكَسَتْ إِيْجَابِيًّا عَلَى قُوَّتِهِ الرُّوحِيَّةِ، بَعْدَ أَنْ أَخَذَ يَتَأَمَّلُ صِفَاتِهَا وَأَثَارَهَا وَشَكْلَهَا⁽⁸⁾، كَذَلِكَ "تَحْكِي كَثِيرٌ مِنْ أَسَاطِيرِ الشُّعُوبِ عَنِ شَعْلَةِ النَّارِ الْأُولَى،

(1) الجاحظ، عمرو بن بحر، الحيوان، ج4، ص286.

(2) الألوسي، محمود شكري، بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، غني بشرحه وضبطه: محمد بهجت الأثري، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 2009، ج2، ص164.

(3) أوس بن حجر، ديوانه، تحقيق: محمد يوسف نجم، بيروت، دار بيروت للطباعة والنشر، ط1، 1980، ص69.

(4) الكميت بن زيد الأسدي، ديوانه، تحقيق: محمد نبيل طريفي، بيروت، دار صادر، ط1، 2000، ص230، والمهول سادينها.

(5) المصدر السابق، ص295-296.

(6) اللسان، "محش".

(7) النابغة الذبياني، ديوانه، تحقيق: عباس عبد الساتر، بيروت، دار الكتب العلمية، ط3، 1996، ص94.

(8) يُنظَرُ: الماجدي، خزعل، أديان ومعتقدات ما قبل التاريخ، عمان، دار الشروق، ط1، 1997، ص35.

وكيف جاءت بها إلى الأرض امرأة سرقتها من القمر⁽¹⁾، وفي صورتها ربة للغابات والبحيرات كانت النار رمزاً لعشتار، فدُشنت لها المعابد في الأحرش، وخصّصت لخدمتها الفتيات العذرات اللواتي كن يقمنّ دوماً على حراسة النار المقدسة، وإبقاء شعلتها حية في هياكلها⁽²⁾، وفي الميثولوجيا المصرية "ارتبطت النار بعبادة إيزيس، وكانت لها طقوس خاصة تُقام في معابدها لإيقاظ الإله الميت أوزوريس، حيث يحمل الكهنة مشاعل الأم الكبرى، ويطوفون بها حول تابوت الإله لتشتعل روحه من جديد بالحياة"⁽³⁾.

وقد عبّد المجوس النار، بعد إيمانهم أن لا كون في العالم إلا بها، ولا حياة ولا نمو ولا انعقاد إلا بممازجتها، ثم تقربوا إليها، فكانوا يحفرون أخدوداً مربّعاً في الأرض يوججون النار فيه، ثم لا يدعون طعاماً لذيذاً ولا شرباً لطيفاً ولا ثوباً فاخراً ولا عطراً فائحاً ولا جوهرًا نفيساً إلا طرحوه فيها تقرباً إليها وتبركاً بها⁽⁴⁾، وفي الزردشتية "قدست النار على أنها أسمى العناصر المخلوقة، وأطهرها"⁽⁵⁾، وفي الميثولوجيا الإغريقية، كانت النار حكرًا للإلهة دون البشر، "فإن بروميثيوس غضب الآلهة وعذابها بعد أن سرق النار الإلهية، وأفسى سرها لبني البشر، ووجههم إلى كيفية توليدها واستخدامها"⁽⁶⁾، ويسنأُس سيدنا موسى النار ليهدّي بها إلى تكليم الله عز وجل، قال تعالى: (إذ رأى نارًا فقال لأهله امكثوا إنني آنست نارًا لعلي آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى). وقد نهضت النار بدور رئيس في الطقوس الدورية الكبرى، حيث عهد إليها إحلال الطهارة، فعند السومريين "تبدأ مراسم الزواج المقدس بقيام إله النار (جيبيل) بتطهير مصجع الإلهة (إنانا) في معبدها المقدس"⁽⁸⁾.

ثم كانت عادة التضحية بالملك أو ابنه بصفته إلهًا، حرقًا بالنار، من العادات السائدة عند الساميين، ففي بيبولوس - وهي أكبر مدينة لعبادة أدونيس-، كان الشخص الذي يُمثل أدونيس يهلك في لهب النار⁽⁹⁾، وفي مدينة صور "كانت صورة الإله ملكارث/ هرقل تُحرق بانتظام في احتفال احتفال مهيب يُمثل درامياً موت الإله على المحرقة ليتلوّه تمثيل بعثه من الموت"⁽¹⁰⁾، وقد كانت

- (1) السواح، فراس، لغز عشتار، الألوهة المؤنثة وأصل الدين والأسطورة، دمشق، دار علاء الدين، ط8، 2002، ص128.
- (2) يُنظر: المرجع السابق، ص108-109.
- (3) المرجع السابق، ص131.
- (4) راجع: الشهرستاني، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم، الملل والنحل، تحقيق: أحمد فهمي محمد، بيروت، دار الكتب العلمية، ط8، 2009، ج3، ص728.
- (5) العقاد، عباس محمود، الله، الجيزة، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ط6، 2008، ص93.
- (6) نعمة، حسن، ميثولوجيا وأساطير الشعوب القديمة، ص176.
- (7) طه، الآية10.
- (8) باقر، طه، مقدمة في أدب العراق القديم، بغداد، دار الحرية للطباعة، ط1، 1976، ص197.
- (9) يُنظر: فريزر، جيمس، أدونيس: دراسة في الأساطير والأديان الشرقية القديمة، ترجمة: جبرا إبراهيم جبرا، بيروت، دار الصراع الفكري، ط1، 1957، ص92.
- (10) المرجع السابق، ص93.

في حضورها في معبده تَسِدُ مَسَدَ تَمَاتِيلِهِ وَصَوْرَهُ، "فَلَمْ يَكُنْ فِي مَعْبِدِهِ فِي مَدِينَةِ قَادِسٍ سِوَى نَارٍ دَائِمَةِ اللَّهَيْبِ، يَلْقَى بِالْبُخُورِ فِيهَا كَهْنَةً أَقْدَامُهُمْ حَافِيَةً، وَرُؤُوسُهُمْ حَلِيقَةً يَلْتَزِمُونَ الْعَفَافَ"⁽¹⁾.

قَسَمُ النَّحَافِ

اتَّفَقَ لِلجَاهِلِيِّينَ عِنْدَ تَحَالُفِهِمْ أَنْ يُقْسِمُوا بِغَيْرِ مَظْهَرٍ مِنَ المَظَاهِرِ المَقْدَّسَةِ فِي عَقِيدَتِهِمْ، حَيْثُ كَانَ الحَلْفُ أَسَّ عَقِيدَةِ النَّحَافِ، فَإِنْ غَابَ الحَلْفُ بَطَلَ الحَلْفُ، مِنْهُ صَدَرَ فَكَانَ، وَإِلَيْهِ يَسْتَوْتِقُونَ عَلَى مَا سَيَكُونُ، قَالَ زُهَيْرٌ⁽²⁾:

أَلَا أْبْلِغُ الأَخْلَافَ عَنِّي رِسَالَةً وَذُبْيَانَ هَلْ أَقْسَمْتُمْ كُلَّ مَقْسَمٍ
وَقَالَ أَيْضًا⁽³⁾:

فَتَجَمَّعُ أَيُّمُنٌ مِنَّا وَمِنْكُمْ بِمَقْسَمَةٍ تَمُورُ بِهَا الدَّمَاءُ
لَمْ يَعْرِفِ القِسْمُ، قَسَمُ النَّحَافِ صِغَةً وَاحِدَةً، "فَمِنْهُمْ مَنْ أَقْسَمَ بِالأَصْنَافِ الَّتِي يَعْبُدُونَهَا، وَيَقْفُونَ عِنْدَهَا حِينَ يَعْقِدُونَ الحَلْفَ، وَمِنْهُمْ مَنْ أَقْسَمَ بِالأَبَاءِ والأَجْدَادِ، وَمِنْهُمْ مَنْ أَقْسَمَ بِالمَشَاهِدِ العَظِيمَةِ"⁽⁴⁾. وَيَتَكَرَّرُ فِي قَسَمِهِمْ مَوْتِيفَاتٌ مَوْتِييَّةٌ كَالجَحْرِ وَالشَّمْسِ وَالجَبَلِ وَالدَّمِ لِتَضْفِي القَدَاسَةَ القَدَاسَةَ عَلَى جُلْفِهِمْ، وَتُنشَى الرَّهْبَةُ فِي نَفْسِهِمْ، فَكَانُوا يَقُولُونَ: "الدَّمُ الدَّمُ، وَالهَدْمُ الهَدْمُ، لَا يَزِيدُهُ طُلُوعُ الشَّمْسِ إِلَّا شَدًّا، وَطُولُ اللَّيَالِي إِلَّا مَدًّا، مَا بَلَّ بَحْرٌ صَوْفَةً، وَمَا أَقَامَ رَضْوَى فِي مَكَانِهِ"⁽⁵⁾، وَمَا بَلَّ بَحْرٌ صَوْفَةً"⁽⁶⁾، كَمَا جَاءَ فِي قَسَمٍ مَنْ تَحَالَفُوا عَلَى الفُضُولِ: "لَنَكُونَنَّ مَعَ المَظْلُومِ، حَتَّى يُؤَدَّى إِلَيْهِ حَقُّهُ مَا مَكَانِهِ"⁽⁵⁾، وَجَاءَ فِي قَسَمٍ مَنْ تَحَالَفُوا عَلَى الفُضُولِ: "لَنَكُونَنَّ مَعَ المَظْلُومِ، حَتَّى يُؤَدَّى إِلَيْهِ حَقُّهُ مَا مَكَانِهِ"⁽⁵⁾، كَمَا جَاءَ فِي قَسَمٍ مَنْ تَحَالَفُوا عَلَى الأَحَابِيشِ: "إِنَّا لَيُدُّ تَهْدُ الهَدْيَ، وَتَحَقِّقُ الدَّمُ الدَّمُ مَا أَرَسَى حَبْتِي"⁽⁷⁾.

مَانِدَةُ النَّحَافِ/ طَعَامُ المَتَحَالِفِينَ

شَعَلَتْ شَرِيعَةُ الإِطْعَامِ فَكَّرَ الإِنْسَانُ وَمَخْيَالُهُ مُنْذُ القَدَمِ، فَامَنَّ أَوَّلَ مَا أَمِنَ أَنَّهُ خُلِقَ مِنْ أَجْلِ عِبَادَةِ الأَلْهَةِ، وَخَدْمَتِهَا بِتَزْوِيدِهَا بِالطَّعَامِ وَالشَّرَابِ لِلتَّغْرِغِ لأَعْمَالِهَا الإِلَهِيَّةِ، فَكَانَتْ القَرَابِيئُ النَّبَاتِيَّةُ مِنْ ثَمَارِ الأَرْضِ مُمْتَلَّةً فِي حِنطَةٍ عَلَى هَيْئَةِ فَطِيرٍ تُقَدَّمُ لِلإِلَهَةِ فِي المَجْتَمَعِ الأُمُومِيِّ/ الزَّرْعِيِّ، وَكَانَتْ التُّضْحِيَّةُ بِالدَّبْحِ وَالدَّمِ قَرَابِيئُ لِلإِلَهَةِ فِي المَجْتَمَعِ الأَبُويِّ/ الرَّعَوِيِّ⁽⁸⁾. وَلَمْ تُكْتَفِ شَرِيعَةُ الإِطْعَامِ، إِطْعَامُ الأَلْهَةِ، لِتَكُونَ فِي المَوَاسِمِ الكُبْرَى حَسْبَ، وَإِنَّمَا بَلَّغَتْ مَدَاهَا لِتَصِلَ

- (1) فريزر، جيمس، أدونيس: دراسة في الأساطير والأديان الشرقية القديمة، ص94.
- (2) زهير بن أبي سلمى، ديوانه، تحقيق: علي حسن فاعور، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1988، ص107.
- (3) المصدر السابق، ص19، المقسمة: موضع القسم.
- (4) علي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج4، ص381.
- (5) الجاحظ، عمرو بن بحر، الحيوان، ج4، ص287، ورضوى اسم جبل بالمدينة.
- (6) البغدادي، محمد بن حبيب، المنمق في أخبار قريش، ص187.
- (7) المصدر السابق، ص230.
- (8) يُنظَر: القمني، سيد، الأسطورة والتراث، القاهرة، المركز المصري لبحوث الحضارة، ط3، 1999، ص109-124.

إلى الإطعام اليومي، حيث كان من بين طقوس السومريين اليومية طقس إطعام الآلهة، يقوم به الكهنة المسؤولون عن تماثيل الآلهة، فيقدمون مختلف أنواع الأطعمة على وجبتين، ووجبة الظهر الرئيسية، ووجبة ما قبل إغلاق المعبد الثانية⁽¹⁾.

مَجَدَّتِ الْعَرَبُ الْإِطْعَامَ، وَعَظَّمَتْ أَمْرَ الْأَضْيَافِ، وَاسْتَرْسَلَتْ فِي الْحَدِيثِ عَنِ ذَلِكَ شِعْرًا، وَضَرَبَتْ مَثَلًا، قَالَ عُرْوَةُ بْنُ الْوَرْدِ⁽²⁾:

سَلَى الطَّارِقَ الْمُعْتَرِّ يَا أُمَّ مَالِكِ إِذَا مَا أَتَانِي بَيْنَ قَدْرِي وَمَجْزَرِي
أَبْسَطُ وَجْهِي أَنَّهُ أَوَّلُ الْقَرَى وَأَبْذِلُ مَعْرُوفِي لَهُ دُونَ مُنْكَرِي
قال حاتم الطائي⁽³⁾:

وَإِنِّي لَعَبْدُ الضَّيْفِ مَا دَامَ ثَاوِيًا وَمَا فِيَّ إِلَّا تِلْكَ مِنْ شِمَةِ الْعَبْدِ
وقال آخر⁽⁴⁾:

وَإِنَّا لَمَشَاوُونَ بَيْنَ رِحَالِنَا إِلَى الضَّيْفِ مِنَّا لِاجْفِ وَمُنِيْمُ

وَمِنْ أَمْثَالِهَا فِي الْجُودِ وَالْكَرَمِ "أَجُودُ مِنْ حَاتِمِ، وَأَجُودُ مِنْ هَرَمِ"⁽⁵⁾. للإطعام في عقيدة الجاهليين طقوس تُنبئ على عظم الشريعة هذه وقداستها، فاتفق أن جعلوا له مواسم⁽⁶⁾، وأضرموا

(1) يُنظَر: الماجدي، خزعل، متون سومر، ص318.

(2) الأصفهاني، أبو الفرج، الأغاني، ج13، ص44.

(3) حاتم الطائي، ديوانه، بيروت، دار صعب، دت، ص77.

(4) المرزوقي، أبو علي أحمد بن محمد بن الحسن، شرح ديوان الحماسة لأبي تمام، تحقيق: غريد الشيخ، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 2003، ج3، ص1103.

(5) الأصفهاني، حمزة بن الحسن، سوائر الأمثال على وزن أفعال، تحقيق: فهمي سعد، بيروت، عالم الكتب، ط1، 1988، ص91.

(6) فَمِنْهُمْ مَنْ خَصَّ نَفْسَهُ بِيَوْمٍ لِلْإِطْعَامِ، كَمَا جَاءَ فِي قَوْلِ الشَّاعِرِ:

قَالُوا: ثَلَاثَاؤُهُ خَصْبٌ وَمَأْنَبَةٌ وَكُلُّ أَيَّامِهِ يَوْمُ الثَّلَاثَاءِ

المرزوقي، أبو علي أحمد بن محمد بن الحسن، الأزمنة والأمكنة، تحقيق: محمد الدليمي، بيروت، عالم الكتب، ط1، 2002، ج1، ص241، والرَّاجِحُ أَنَّ الشِّتَاءَ كَانَ مَوْسَمَ الْإِطْعَامِ فِي عَقِيدَتِهِمْ، قَالَ طَرْفَةُ بْنُ الْعَبْدِ:

نَحْنُ فِي الْمَشْتَاءِ نَدْعُو الْجَفْلَى لَا تَرَى الْأَدَابَ فِينَا يَنْتَقِرُ

طَرْفَةُ بْنُ الْعَبْدِ، ديوانه، تحقيق: مهدي ناصر الدين، بيروت، دار الكتب العلمية، ط3، 2002، ص43. وقال أبو الخراش الهذلي يرثي ديبية:

صَحْمُ الرَّمَادِ عَظِيمُ الْقَدْرِ جَفْنُهُ حِينَ الشِّتَاءِ كَحَوْضِ الْمَنْهَلِ اللَّقْفِ

ابن الكلبي، محمد بن السائب، الأصنام، ص54. وقد يذكرون جمادى إشارة إلى الشتاء، قال أبو حنيفة: ويشهد للغنوي كثرة ذكر العرب جمادى ببرد الزمان، قال الشاعر:

يُصَفِّقُهُ أَنْفٌ مِنَ الرِّيحِ بَارِدٍ وَنُكْبَاءُ لَيْلٍ مِنْ جَمَادَى وَصِرْصِرِ

المرزوقي، شرح ديوان الحماسة لأبي تمام، ج3، ص1151. وقال مرة بن محكان التميمي:

فِي لَيْلَةٍ مِنْ جَمَادَى ذَاتِ أَنْدِيَةٍ لَا يُبْصِرُ الْكَلْبُ مِنْ ظِلْمَانِهَا الطَّنْبَا

الأصفهاني، أبو الفرج، الأغاني، ج3، ص224.

وأضرموا للأضياف النيران، نيران القرى⁽¹⁾، وأوقفوا لهم الكلاب ليستنجوها⁽²⁾، وتقامروا بالقداح وقت الشدة والبلاء لإطعام ذوي الحاجة⁽³⁾، ثم خصوا زائري الحرم بوظيفة دينية تنهض به، فكانت الرفادة في طليعة الوظائف الدينية.

يأتي إعداد مائدة الطعام عند عقد التحالف تأكيداً على ما تمّ عليه الإبرام، فتكون مباركة ومقدّسة، ثم لتسري البركة والحرمه في أجسادهم كما سرّت من أفواههم، حيث اتفق لابن جُدعان أن يُعدّ وليمة لمن تحالفوا على الفضول⁽⁴⁾، وهي قرينة للوليمة التي أعدّها موسى بعد إبرام الله العهد مع بني إسرائيل، "أما كبش التكريس، فتأخذه وتطبخ لحمه في مكان مقدّس، فيأكله هارون وبنوه لحم الكبش والخبز الذي في السلّة عند باب خيمة الاجتماع"⁽⁵⁾. شاركت المائدة المقدّسة في غير طقس من الطقوس الكبرى في الشرق القديم، بدءاً بمائدة الزواج المقدّس التي تُنصب

(1) فكانوا يوقدونها على الأماكن المرتفعة لتكون أشهر، وربما يوقدونها بالمندلي الرطب (وهو نوع من العطور) ليهتدي إليها العميان، يُنظر: الألوسي، بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، ج2، ص159. وأشعارهم في نار القرى كثيرة، منها:

خصّأت له ناري فأبصر ضوءها وما كاد لولا حضأة النار يبصر
وقال آخر:

ومستنجع بعد الهدوء دعوته بشقراء مثل الفجر ذاك وقودها
المرزوقي، شرح ديوان الحماسة لأبي تمام، ج3، ص1152/1150.

(2) لعلّ أبرز ما يؤكد أهمية دور الكلب في قرى الأضياف، كثرة الأبيات الشعرية في هذا الموضوع، موضوع القرى، والتي تبدأ ب: (ومستنجع)، وهو من يطلب نباح الكلب ليهتدي به إلى صاحبه فيطعمه، قال عتيبة بن بجير المازني:

ومستنجع بات الصدى يستنجه إلى كل صوت فهو في الرحل جانح
وقال آخر:

ومستنجع قال الصدى مثل قوله حضأت له ناراً لها حطب جزل
وقال آخر:

ومستنجع تستكشط الريح ثوبه ليسقط عنه وهو بالثوب معصم
المرزوقي، شرح ديوان الحماسة لأبي تمام، ج3، ص1106/1098 / 1089. ويظهر الكلب كغائب لنار القرى إن انطفأت، قال الشاعر:

يدلّ ضيفي عليّ في غسق الليل إذا النارُ نام موقدها
الألوسي، بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، ج1، ص71.

(3) لعلّ في لعبهم الميسر فصل الشتاء، حيث يشتد الكرب والبرد، وتزداد حاجة الناس لمن يستضيفهم ويطعمهم، ما يؤيدّ أنه فصل الإطعام في عقيدتهم وموسمه، قال متمم بن نويرة يرثي أخاه مالكاً:
ولا يرماً تُهدي النساء لعربيه إذا القشع من حسّ الشتاء تقفّعاً
والبرم: الذي لا يدخل مع القوم في الميسر.

الضبي، المفضل، المفضليات، تحقيق: قصي الحسين، بيروت، دار ومكتبة الهلال، 2004، ص150.

(4) يُنظر: البغدادي، محمد بن حبيب، المنمق في أخبار قریش، ص187.

(5) الخروج، 29: 31-33.

للشخصيتين الرئيسيتين الممثلتين للإلهة إنانا وعشيقيها دوموزي⁽¹⁾، مروراً بمائدة الإطعام اليومي للإلهة عند السومريين، انتهاءً بمائدة العشاء الأخير⁽²⁾.

المطيبون ولعقة الدم

شغل أمر المطيبين ولعقة الدم - دون سائر الأحلاف الجاهلية - حيزاً واسعاً في روايات الإخباريين، ولعلّ مرد ذلك إلى غير أمر، فمن سبب نشوئهما حيث عدا لإعادة هيكله الوظائف الدينية للبيت الحرام، وتوزيعها بينهما، إلى سمو القبيلة/ قريش التي عدا في كنفها، إلى رفعة الأنساب التي ضمتها كنبتي عبد مناف، وبني عبد الدار، وبني مخزوم، وبني أسد، وبني زهرة، وبني جمح. في كتابه (ديانة مكة في الجاهلية: كتاب الحمس والطلس والحلة) طرح الأستاذ زكريا محمد مسألة بزوغ حلفي المطيبين ولعقة الدم على الساحة الدينية، فأخذ في تفسير نشوئهما معتمداً غير منطوق، بدءاً من إعادة حفر عبد المطلب بن زمزم بعد أن طمرتها جرهم إثر إخراج خزاعة لها، وولايتهما البيوت، ثم جعل بني عبد مناف من الحلة، وإلهم مطعم الطير، وجعل بني عبد الدار من الحمس، وإلهم مجاوز الریح/ ساقى الخمر، الأمر الذي دفع بعبد المطلب أن يذبح أحد بنيه عند حفره زمزم لإله الحمس ثمناً لبئال السقاية، ذلك لأن إله عقيدته مطعم لا ساق، دون أن يعلل وجود الرفادة في بني عبد الدار قبل بزوغ الحلفين⁽³⁾. غير أن نظريته سرعان ما تنبذت دعائمها بناءً على ما هو ات:

1. لقد سبق نشوء الحلفين، حلفي المطيبين ولعقة الدم، تاريخياً إعادة حفر عبد المطلب بن زمزم، وكان صاحب أمر المطيبين/ بني عبد مناف ومن حالفهم، عمه عبد شمس بن عبد مناف لأنه أسنهم، واتفق أن عهدت السقاية إلى بني عبد مناف حال عقد حلفهم، أي قبل إعادة حفر زمزم⁽⁴⁾.

2. إجماع روايات الإخباريين طراً على أن قريشاً كلها من الحمس، ولا حلة فيهم، هذا إن غصضنا الطرف عن زمن ابتداع قريش عقيدتها أكان قبل نشوء الحلفين أم بعده؟⁽⁵⁾.

- (1) يُنظر: السواح، فراس، الأسطورة والمعنى، ص158.
 (2) جاء فيها: "وبينما هم يأكلون أخذ يسوع خبزاً وباركه وكسره وناول تلاميذه، وقال: خذوا كلوا هذا هو جسدي، وأخذ كأساً وشكر وناولهم، وقال: اشربوا منها كلكم هذا هو دمي، دم العهد الذي يسفك من أجل أناس كثيرين لغفران الخطايا"
 مرقس: 14: 22-26.
 (3) يُنظر: محمد، زكريا، ديانة مكة في الجاهلية: كتاب الحمس والطلس والحلة، عمان، الأهلية للنشر والتوزيع، ط1، 2012، ص137-145.
 (4) يُنظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ص130-136.
 (5) يُنظر منها: ابن هشام، السيرة النبوية، ص187-190، والبغدادي، محمد بن حبيب، المنق في أخبار قريش، ص127-130، والأزرقي، محمد بن عبد الله، أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، ج1، ص175، واليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب، تاريخ اليعقوبي، ج1، ص306، وابن منظور، لسان العرب، "حمس"، والحموي، ياقوت بن عبد الله، معجم البلدان، تحقيق: فريد عبد العزيز الجندي، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1990، ج5، ص214.

جاء في أمر نشوء المطيبين ولعقة الدم أن قالوا:

وكان قصي شريف أهل مكة، وكان لا يبارغ فيها، فلما كبر ورق، جعل الحجابة والندوة والرفادة والسقاية واللواء لعبد الدار، وكان بكرهه، وكان ضعيفاً، فخصه بذلك ليلحقه بسائر إخوته، فلما هلك قصي، قام عبد مناف على أمر قصي، وأمر قريش إليه، فأقام أمره بعده، واختط بمكة رباعاً بعد الذي كان قطع لقومه، فهلك عبد مناف، فكان ما سمينا لبني عبد الدار، ثم إن بني عبد مناف أرادوا أخذ ذلك منهم، وقالوا: نحن أحق به، فأبى بنو عبد الدار، فقترقت قريش في ذلك، وكان مع بني عبد مناف زهرة، وتيم بن مرة، وبنو أسد بن عبد العزى، والحارث بن فهر، وكان مع بني عبد الدار سهم، وجمح، ومخزوم، وعدي، وخزجت عامر بن لوي عن أمر الفريقيين جميعاً، فبنو عبد مناف، وحلفاؤهم المطيبون، وعبد الدار وحلفاؤهم الأحلاف، فأخرجت عاتكة بنت عبد المطلب جفنة فيها طيب، فغمسوا أيديهم فيها، فسموا المطيبين، ونحر الأخرى جزراً، فغمسوا أيديهم في دمها، فسموا الأحلاف، ولحق رجل من بني عدي يقال له الأسود بن حارثة لعقة من دم، ولحقوا منه، فسموا لعقة الدم⁽¹⁾، فبينما الناس على ذلك قد أجمعوا للحرب⁽²⁾ إذ تداعوا إلى الصلح، على أن يعطوا بني عبد مناف السقاية، والرفادة، وأن تكون الحجابة واللواء والندوة لبني عبد الدار كما كانت، ففعلوا، ورضي كل واحد من الفريقيين بذلك⁽³⁾.

تتفق روايات الإخباريين على أن قصياً إنما عهد بمقاليد الحكم والرياسة ووظائف البيت الحرام إلى ولده البكر عبد الدار ليلحقه سموً بإخوته بعد أن رآه ضعيفاً، ورأى إخوته يفوقونه رفعةً وعزةً وسودداً، دون أن تأتي على ذكر تلك الأمور التي فاقه إخوته فيها⁽⁴⁾، وتتفق كذلك على أن الخلاف الناشب بين الإخوة فيما بعد، إنما خلافاً سياسياً ظهر على الساحة جزاء تغير موازين القوى بينهم⁽⁵⁾.

- (1) البغدادي، محمد بن حبيب، المنمق في أخبار قريش، ص 189-190.
- (2) وذلك بعد أن أخذت القبائل بتوزيع بعضها أمام بعضها في الحرب، فعبيت بنو عبد مناف لبني سهم، وعبيت بنو أسد لبني عبد الدار، وعبيت زهرة لبني جمح، وعبيت بنو تيم لبني مخزوم، وعبيت بنو الحارث بن فهر لبني عدي بن كعب، ثم قالوا: لئن كل قبيلة من أسند إليها.
- راجع: ابن إسحاق، السيرة النبوية، ص 131.
- (3) ابن هشام، السيرة النبوية، ص 132.
- (4) كما ظهر في رواية ابن حبيب عن ابن الكلبي السابقة: (وكان بكرهه وكان ضعيفاً، فخصه بذلك ليلحقه بسائر إخوته)، وقال ابن كثير: (وإنما خصه بها كلها لأن بقية إخوته عبد مناف، وعبد العزى، وعبد، كانوا قد شرفوا في زمن أبيهم، وبلغوا في قوتهم شرفاً كبيراً، فأحب قصي أن يلحق بهم عبد الدار في السؤدد، فخصه بذلك).
- ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل، البداية والنهاية، تحقيق: محيي الدين ديب مستو، آخر، دمشق، دار ابن كثير، ط3، 2013، ج2، ص492، وراجع: ابن هشام، السيرة النبوية، ص129.
- (5) ينظر: المصدر السابق، ص130.

وكذلك: البغدادي، محمد بن حبيب، المنمق في أخبار قريش، ص50.

بَيَدَ أَنَّ الحُكْمَ لَمْ يُعْهَدَ تَسْلِيمُهُ لِمَنْ كَانَ ضَعِيفًا، فَعُرْفُهُمَ الَّذِي يُنْصُ عَلَى أَنَّ "الكفاية الشخصية هي الأساس لتولي رئاسة القبيلة"⁽¹⁾، خاصةً وأن حكومة قريش كانت إبان تلك المرحلة حديثة العهد بحكم مكة، وذات صلاتٍ ممتدةٍ بغيرها من حكومات القبائل المترامية أنحاء الجزيرة العربية بحكم موضعيها الديني، ولا يقوى على حكمها إلا ذو بأس.

يبدو أن قصياً قد قام بما قامه كمرحلة انتقالية ليحتفظ بوحدة الحكومة القرشية ويبعد عنها أسباب الشقاق، حيث كان "أعداؤها من خزاعة وبنو بكر لا يزالون يعيشون متقيين حول مكة"⁽²⁾.

ثم إن الوظائف التي جرى الخلاف عليها، وظائف دينية ظهرت على الساحة الدينية لا السياسية، ويحق القول: إن الخلاف الناشب بين الإخوة خلاف ديني، ثمظهر بشكلٍ سياسي، يحتم بهيكله الوظائف الدينية لتعود كل وظيفة إلى أولي العقيدة التي انبثقت منها.

لنشوء الحلفين مرجع عقدي أوجب إعادة توزيع الوظائف الدينية، حيث مثل الحلفان التوثيق الكونيين العظميين، الأنثوية والذكرية، فمثل المطيبون العقيدة الأنثوية، ووقفت كاهنتها العليا/ عاتكة بنت عبد المطيب، وانتتموا لما أمثلتهم فعله، فأحضرت جفنة مملوءة طيباً، ليغمسوا أيديهم فيها، "ثم مسحوا الكعبة بأيديهم توكيداً على أنفسهم"⁽³⁾، وإنما جعلت كاهنتها الطيب سائل تعاقدهم لأن الطيب يخص الأنثى دون الذكر، وفي رواية البلاذري ما يؤيد عقيدة المطيبين الأنثوية، قال: "وحالف بني عبد الدار على منع المطيبين من نشبتهم وإرادتهم بنو مخزوم، وبنو جمح، وبنو سهم، وبنو عدي بن كعب، اجتمعوا، فقالت بنو عدي: إنما الطيب لربات الحجال، وأتوا بجفنة فيها دم، فغمسوا أيديهم فيها"⁽⁴⁾. والمُنتبَع لصورة الطيب والعطر في الشعر الجاهلي، يجدها اقتصرت على الأنثى دون الذكر، قال المرفق الأكبر في ظعن أسماء⁽⁵⁾:

بَلْ هِيَ شَجْتُكَ الطَّعْنَ بَاكِرَةً كَأَنَّهِنَّ النَّخْلُ مِنْ مَلْهَمِ
النَّشْرِ مَسْكَ وَالْوَجْوهَ دَنَا نَيْرِ وَأَطْرَافِ البَنَانِ عَنَمِ
وقال امرؤ القيس⁽⁶⁾:

أَلَمْ تَرِيَانِي كَلَّمَا جِئْتُ طَارِقًا وَجَدْتُ بِهَا طَيْبًا وَإِنْ لَمْ تَطَّيَّبِ
وقال في مُعَلِّقَتِهِ⁽⁷⁾:

(1) الشريف، أحمد إبراهيم، مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول، ص138.

(2) المرجع السابق، ص139.

(3) ابن هشام، السيرة النبوية، ص131.

(4) البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر، أنساب الأشراف، ج1، ص63.

(5) الضبي، المفضل، المفضليات، ص135.

(6) امرؤ القيس، ديوانه، ص29.

(7) المصدر السابق، ص111.

كَدَأَبِكَ مِنْ أُمِّ الْخُوَيْرِثِ قَبْلَهَا وِجَارَتِهَا أُمُّ الرَّبَابِ بِمَا سَلَّ
 إِذَا قَامَتَا تَضَوَّعَ الْمِسْكُ مِنْهُمَا نَسِيمَ الصَّبَا جَاءَتْ بَرِيًّا الْقَرْنُفُلُ
 وَمِنْ الطُّيُوبِ فِي الشَّعْرِ الْجَاهِلِيِّ، الْكِبَاءُ، "تَكْتُبُ بِهِ النِّسَاءُ عِنْدَ الشُّعْرَاءِ، وَيَصُوغُ مِنْ
 الْمِطْطَرَةِ دَخَانَهُ الذِّكِّيَّ"⁽¹⁾، قَالَ الْمَرْقَشُ الْأَصْغَرُ⁽²⁾:

فِي كَلِّ مُمَسَى لَهَا مِقْطَرَةٌ فِيهَا كِبَاءٌ مَعْدٌ وَحَمِيمٌ
 وَفِي الطُّقُوسِ الدِّينِيَّةِ فِي الشَّرْقِ الْقَدِيمِ، جُعِلَ الطَّيِّبُ وَالنَّطِيبُ لِلْأُنْثَى دُونَ الذَّكَرِ، فَفِي لَيْلَةِ
 الْعَرَسِ الْمَوْعُودَةِ فِي الزَّوْجِ الْمُقَدَّسِ، تَأْخُذُ إِنَانَا بِتَهْنِئَةٍ نَفْسِهَا، فَتَسْتَحِمُ وَتَتَعَطَّرُ بِالطَّيِّبِ وَتَضَعُ
 زِينَتَهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ دَوْمُوزِي بِعَرَبِيَّةِ الْمَلَكِيَّةِ⁽³⁾:

إِنَانَا، نَزُولًا عِنْدَ رَغْبَةِ أُمِّهَا
 اسْتَحَمَتْ وَتَضَمَّخَتْ بِالزَّيْتِ وَالْعِطْرِ
 وَفِي زَوْجِ الْمَلِكِ شَوْلَجِي مِنَ الْإِلَهَةِ إِنَانَا، كَانَتْ تَنْشُدُ فِي مَخْدَعِهَا، وَقَدْ أَنْهَتْ زِينَتَهَا⁽⁴⁾:
 بَعْدَ أَنْ أَسْتَحِمُ مِنْ أَجْلِ السَّيِّدِ، مِنْ أَجْلِ الثَّوْرِ الْبَرِّيِّ
 بَعْدَ أَنْ أَطْلِي بِالْعَنْبَرِ تُعْرِي
 وَفِي نَشِيدِ الْإِنشَادِ، تُصِفُ الْجَوْفَةَ الْعُرُوسَ⁽⁵⁾:

مَنْ هَذِهِ الطَّالِعَةُ مِنَ الْبَرِّيَّةِ
 كَأَشْجَارِ النَّخِيلِ
 تَعْبِقُ بِالْمُرِّ وَالْبُخُورِ
 وَكُلَّ عَطُورِ التَّاجِرِ

ثُمَّ كَانَ حَلْفُ لَعْقَةِ الدَّمِ مُمَثَّلًا الْعَقِيدَةَ الذَّكَرِيَّةَ، وَوَقَفَ كَاهِنُ الْإِلَهَةِ الذَّكَرِيَّةِ/ الْأَسْوَدِ بْنِ حَارِثَةَ
 لِيَأْتَمِرُوا بِمَا يَقُومُ بِهِ، فَلَعَقَ مِنْ دِمِ الْجَزُورِ، فَلَعَقُوا مِثْلَهُ⁽⁶⁾، وَكَانَ مِنْهُمْ أَنْ يَذْبَحُوا جُزُورًا، وَيَلْعَقُوا
 وَيَلْعَقُوا مِنْ دَمِهِ، لِأَنَّ الدَّمَاءَ وَالذَّبَائِحَ قَرَابِينَ الْإِلَهَةِ الذَّكَرِيَّةِ⁽⁷⁾.

(1) عبد الرحمن، نصرت، الصورة الفنية في الشعر الجاهلي في ضوء النقد الحديث، عمان، دار كنوز المعرفة، ط1، 2013، ص69.

(2) الضبي، المفضل، المفضليات، ص142.

(3) السواح، فراس، الأسطورة والمعنى، ص152.

(4) المرجع السابق، ص157.

(5) نشيد الإنشاد، 7:3.

(6) ففي ائتمار كل واحد من الحلفين للقيام بما أملت عليه الشخصية التي أحضرت السائل المقدس ما يؤكد الصبغة الكهنوتية لهاتين الشخصيتين، وعلو شأن كل واحد منهما بين أهله.

(7) يُنظَر: القمني، سيد، الأسطورة والتراث، ص125.

السَّقَايَةُ

تَأْتِي السَّقَايَةُ فِي طَلِيعَةِ وَطَائِفِ النَّبْتِ الْحَرَامِ، وَهِيَ وَظِيفَةُ عَهْدِ إِلَيْهَا تَزْوِيدُ زَائِرِيهِ فِي الْمَوَاسِمِ الدِّينِيَّةِ بِالمَاءِ بَعْدَ أَنْ كَانُوا يَسْتَرُونَ الرَّبِيبَ وَالتَّمْرَ، فَيَخْلُطُوهُ بِالمَاءِ لِيَكْسِرَ غَلْظَ مِيَاهِ آبَارِ مَكَّةَ⁽¹⁾، وَقَدْ أَخَذَ قَصِيُّ بْنُ كَلَابٍ بَعْدَ أَنْ وَلِيَ أَمْرَ النَّبْتِ بِحَفْرِ آبَارٍ لِتَغْطِيَةِ مَاءِ السَّقَايَةِ، حَيْثُ كَانَتْ زَمَزَمَ إِذْ ذَاكَ مَطْمُومَةً مِنْ زَمَنٍ جَرَهُمْ، قَدْ تَنَاسَوْا أَمْرَهَا مِنْ تَقَادُمِ عَهْدِهَا، وَلَا يَهْتَدُونَ إِلَى مَوْضِعِهَا⁽²⁾، فَكَانَتْ "العجول أولى الآبار التي حفرها، ثم كانت البئر التي حفرها عند الرِّدَمِ الأعلى"⁽³⁾. وعندما ولي بنو عبد مناف بعد عقد حلفهم المطيبين أمر السَّقَايَةَ، أَخَذُوا بِحَفْرِ الآبَارِ الآبَارِ لِتَكْفُلَ مَوْنَةَ الزَّائِرِينَ بِالمَاءِ، "فحفر عبد شمس بن عبد مناف الطوى، وهي البئر التي بأعلى مكة عند البيضاء، وحفر هاشم بن عبد مناف بدر، وهي البئر التي عند المُسْتَنْدَرِ، خَطَمَ الخندمة على فم شعب أبي طالب"⁽⁴⁾.

ارْتَبَطَتِ المِيَاهُ فِي عَقِيدَةِ الْإِنْسَانِ الْبُدَائِيِّ بِالْإِلَهَةِ الْأَنْثَى، وَأَمَّنَ "أَنَّهَا مِيَاهُ الْأَمْطَارِ الْعُلُويَّةِ، وَمِيَاهِ الْأَعْمَاقِ الْبَاطِنِيَّةِ الَّتِي تَنْفَجِرُ أَنْهَارًا وَعِيُونًا"⁽⁵⁾، بِذَا عَهْدَتِ السَّقَايَةَ إِلَى حَلْفِهَا لِخُرُوجِ المَاءِ مِنْ رَحْمِ الْأَرْضِ، فَيُسْقَوُهُ زَائِرِي مَعْبَدِهِمْ⁽⁶⁾.

الرَّفَادَةُ

تَنْصُ الرَّفَادَةُ عَلَى إِطْعَامِ نَزْلِ النَّبْتِ الْحَرَامِ فِي الْمَوَاسِمِ الدِّينِيَّةِ، وَهِيَ مِنْ بَيْنِ الْوَطَائِفِ الَّتِي كَانَتْ عَهْدُ خُرَاعَةٍ، فَكَانَ مِنْ أَمْرِ عَمْرٍو بْنِ لَحْيٍ أَنْ "دَبِحَ أَيَّامَ الْحَجِيجِ عَشْرَةَ آلَافٍ بَدَنَةً فِي كُلِّ سَنَةٍ، يُطْعِمُ الْعَرَبَ وَيَحْيِي لِهِمُ الْحَيْسَ بِالسَّمَنِ وَالْعَسَلِ، وَيَلْتُمُّ لَهُمُ السَّوِيقَ"⁽⁷⁾.

ثُمَّ كَانَ مِنْ أَمْرِ قُصَيِّ بْنِ أَسَدٍ أَنْ "فَرَضَ عَلَى فُرَيْشٍ خَرَجًا تُخْرِجُهُ فِي كُلِّ مَوْسِمٍ، فَيَصْنَعُ بِهِ طَعَامًا لِلْحَاجِّ، فَيَأْكُلُ مِنْهُ مَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ سَعَةٌ وَلَا زَادٌ"⁽⁸⁾.

يَبْدُو أَنَّ الرَّفَادَةَ عُوْدَتْ إِلَى بَنِي عَبْدِ مَنْفَافٍ عِنْدَ إِبْرَاهِيمِ حَلْفِهِمُ الْمُطِيبِينَ، لِارْتِبَاطِهَا بِحَدِيثِ دِينِيٍّ ذِي حَظٍّ عَظِيمٍ قَدْ قَامُوا بِهِ، وَهُوَ الْإِيْلَافُ⁽⁹⁾، فَيُوَكِّدُ (كسندر) "أَنَّ الْإِيْلَافَ كَانَ نِظَامًا مَكْمَلًا

(1) يُنظَرُ: الْأَزْرَقِيُّ، مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، أَخْبَارُ مَكَّةَ وَمَا جَاءَ فِيهَا مِنَ الْأَثَارِ، ج1، ص114.

(2) ابْنُ كَثِيرٍ، أَبُو الْفَدَاءِ إِسْمَاعِيلُ، الْبَدَايَةُ وَالنِّهَايَةُ، ج2، ص489.

(3) الْأَزْرَقِيُّ، مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، أَخْبَارُ مَكَّةَ وَمَا جَاءَ فِيهَا مِنَ الْأَثَارِ، ج1، ص112-113.

(4) ابْنُ هِشَامٍ، السِّيْرَةُ النَّبَوِيَّةُ، ص144-145.

(5) السَّوَّاحُ، فِرَاسٌ، لُغْزُ عَشْتَارٍ، ص174.

(6) وَقَدْ وَلِيَ هَاشِمُ بْنُ عَبْدِ مَنْفَافِ السَّقَايَةَ، فَلَمَّا هَلَكَ وَلِيهَا الْمُطِيبُ بْنُ عَبْدِ مَنْفَافٍ، فَلَمَّا هَلَكَ وَلِيَهَا عَبْدُ الْمُطِيبِ، وَأَعَادَ حَفْرَ زَمَزَمَ. يُنظَرُ: ابْنُ هِشَامٍ، السِّيْرَةُ النَّبَوِيَّةُ، ص134-140.

(7) ابْنُ كَثِيرٍ، أَبُو الْفَدَاءِ إِسْمَاعِيلُ، الْبَدَايَةُ وَالنِّهَايَةُ، ج2، ص458.

(8) ابْنُ هِشَامٍ، السِّيْرَةُ النَّبَوِيَّةُ، ص129.

(9) الْإِيْلَافُ: الْعَهْدُ وَالذَّمَامُ، وَأَصْحَابُ الْإِيْلَافِ أَرْبَعَةٌ إِخْوَةٌ: هَاشِمٌ، وَعَبْدُ شَمْسٍ، وَالْمُطِيبُ، وَنُوفَلٌ، وَكَانُوا يُؤَلَّفُونَ الْجَوَارِ يَتَّبِعُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، يَجِيرُونَ قَرِيبًا بِمِيرِهِمُ. اللِّسَانُ، "ألف".

لِعَقِيدَةِ الْحُمْسِ⁽¹⁾، وَلَا أَدَلَّ عَلَى عَظَمِ شَأْنِهِ الدِّينِيِّ مِنْ أَنْ أَفْرَدَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِلْإِيلَافِ سُورَةً فِي كِتَابِهِ، قَالَ تَعَالَى⁽²⁾: (لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ) (1) إِيلَافُهُمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (2) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ (3) الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ (4)).

يُظْهِرُ أَنَّ رِحْلَتِي الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ قَدْ كَانَتَا رِحْلَتَيْنِ دِينِيَّتَيْنِ، فِي حَدِيثٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، يَفَسِّرُ قَوْلَهُ تَعَالَى: (لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ) قَالَ: "نَهَاهُمْ عَنِ الرَّحْلَةِ، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ، وَكَفَاهُمْ الْمُؤْنَةَ، وَكَانَتْ رِحْلَتُهُمْ فِي الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ، فَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ رَاحَةٌ فِي شِتَاءٍ وَلَا صَيْفٍ، فَأَطْعَمَهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْ جُوعٍ، وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ، وَأَلْفُوا الرَّحْلَةَ، فَكَانُوا إِذَا شَاءُوا ارْتَحَلُوا، وَإِذَا شَاءُوا أَقَامُوا"⁽³⁾.

كَانَ مِنْ بَنِي عَبْدِ مَنَاةَ، أَنْ قَامُوا بِإِيلَافِهِمْ لِيَكُونُوا أَوَّلَ مَنْ أَخَذَ لِقُرَيْشِ الْجِبَالِ مِنْ جَوَارِهِمْ، حَيْثُ أَخَذَ لَهُمْ هَاشِمٌ حَبْلًا مِنْ مَلُوكِ الشَّامِ الرُّومِ وَعَسَّانَ، وَأَخَذَ لَهُمْ عَبْدِ شَمْسٍ حَبْلًا مِنَ النَّجَاشِيِّ الْأَكْبَرِ، وَأَخَذَ لَهُمْ نَوْفَلٌ حَبْلًا مِنَ الْأَكَّاسِرَةِ، وَأَخَذَ لَهُمْ الْمُطَّلِبُ حَبْلًا مِنْ مَلُوكِ جَمِيرٍ، فَسَمُّوا الْمُجَبِّرِينَ⁽⁴⁾، قَالَ مَطْرُودُ بْنُ كَعْبِ الْخَزَاعِيِّ يَرِثِي بَنِي عَبْدِ مَنَاةَ⁽⁵⁾:

الْأَخْذُونَ الْعَهْدَ فِي أَفَاقِهَا وَالرَّاحِلُونَ بِرِحْلَةِ الْإِيلَافِ
وَالْمُطْعِمُونَ إِذَا الرِّيحُ تَنَاحَتْ حَتَّى تَغِيْبَ الشَّمْسُ فِي الرَّجَافِ

تَنْهَضُ عَقِيدَةُ الْإِيلَافِ عَلَى وَظِيفَةِ الرَّفَادَةِ، وَشَرِيعَةُ الْإِطْعَامِ، ذَلِكَ أَنَّ "المُؤَاكَلَةَ تُعَدُّ عَقْدَ جَوَارٍ عِنْدَ الْعَرَبِ، إِذَا أَطْعَمَتْ قُرَيْشُ الْقَبَائِلَ الْقَادِمَةَ إِلَى مَكَّةَ فِي مَوْسِمِ الْحَجِّ، فَإِنَّهَا تَتَّالٍ احْتِرَامًا عَامًّا وَمَنْزِلَةً سَامِيَةً، كَمَا تُعْتَبَرُ قَدْ تَعَاقَدَتْ مَعَهَا بِرَابِطَةِ الْجَوَارِ"⁽⁶⁾، لِذَا "كَانَ هَاشِمٌ بْنُ عَبْدِ مَنَاةَ مَنَاةَ أَوَّلَ مَنْ سَنَّ الرِّحْلَتَيْنِ لِقُرَيْشٍ، وَأَوَّلَ مَنْ أَطْعَمَ التَّرِيدَ بِمَكَّةَ، وَإِنَّمَا كَانَ اسْمُهُ عَمْرًا، فَمَا سُمِّيَ هَاشِمًا إِلَّا بِهَشْمِهِ الْخُبْزِ بِمَكَّةَ"⁽⁷⁾، قَالَ أَحَدُهُمْ يَمْدُحُ هَاشِمًا⁽⁸⁾:

عَمْرُو الَّذِي هَشَّمَ التَّرِيدَ لِقَوْمِهِ قَوْمٍ بِمَكَّةَ مُسْتَنْبِينَ عَجَافٍ⁽⁹⁾

(1) الملاح، هاشم يحيى، الوسيط في تاريخ العرب قبل الإسلام، بيروت، دار الكتب العلمية، ط2، 2011، ص289.

(2) سورة قريش.

(3) الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، تفسير الطبري، ج24، ص623.

(4) يُنظَرُ: الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، بيروت، دار سويدان، دت، ج1، ص252.

(5) البغدادي، محمد بن حبيب، المنمق في أخبار قريش، ص46.

(6) الشريف، أحمد إبراهيم، مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول، ص133.

(7) ابن هشام، السيرة النبوية، ص135.

(8) المصدر السابق، ص135.

(9) أصل ذلك أن أصاب الناس في سنة جدب شديد، فخرج هاشم إلى الشام، فأمر بخبز كثير، فخبز له، فحملة في الغرائر على الإبل حتى وافى مكة، فهشم ذلك الخبز، ونحر تلك الإبل ثم طبخها وألقى تلك القدور على ذلك الخبز، فأطعم أهل مكة وأشبعهم.

راجع: البغدادي، محمد بن حبيب، المنمق في أخبار قريش، ص219.

سُنَّتْ إِلَيْهِ الرَّحْلَتَانِ كِلَاهُمَا سَفَرُ الثَّنَاءِ وَرِحْلَةُ الْأَصْيَافِ
فَأَخَذَ يُطْعِمُ النَّاسَ فِي كُلِّ مَوْسِمٍ بِمَا يَجْتَمِعُ عِنْدَهُ مِنْ تَرَافِدِ قُرَيْشٍ، يَشْتَرِي دَقِيقًا، وَيَأْخُذُ مِنْ
كُلِّ ذَبِيحَةٍ بَدَنَةً أَوْ بَقْرَةً أَوْ شَاةً فَحَذَّاهَا، فَيَجْمَعُ ذَلِكَ كُلَّهُ، ثُمَّ يَحْزُرُ بِهِ الدَّقِيقَ، وَيَطْعَمُهُ الْحَاجَّ⁽¹⁾، قَالَ
قَالَ وَهَبُ بْنُ عَبْدِ قُصَيٍّ يَذْكَرُ أَمْرَ هَاشِمٍ⁽²⁾:
تَحَمَّلَ هَاشِمٌ مَا ضَاقَ عَنَّا وَأَعْيَا أَنْ يَقُومَ بِهِ ابْنُ بَيْضِ
فَأَوْسَعَ أَهْلَ مَكَّةَ مِنْ هَشِيمٍ وَشَابَ الْخَبِرَ بِاللَّحْمِ الْغَرِيضِ

الْحِجَابَةُ

وهي الوظيفة التي بمقتضاها ينال من ينالها ولاية البيت الحرام ومفاتيحه، فلا يدخله أحد إلا بإذنه، ويظهر في روايات الإخباريين أن مفاتيح البيت كانت زمن ولاية جرهم بيدهم إلى أن بعث بمكة، فوليت إباد الحجابة، فكان أمر البيت إلى رجل منهم يقال له وكيع بن سلمة بن زهر بن إباد⁽³⁾.

وفي زمن خزاعة، "وليت غيشان البيت دون بني بكر بن عبد مناة"⁽⁴⁾، وكان الذي يليه منهم منهم عمرو بن الحارث الغيشاني، فيقيت في خزاعة يتوارثون ذلك كابرًا عن كابر حتى كان آخرهم حليل بن حبشية بن سلول بن كعب بن عمرو الخزاعي، وهو الذي خطب قصي إليه ابنته حبي، فرغب به، فزوجته⁽⁵⁾.

يُسنَّفُ مِنْ قِصَّةِ نَقْلِ مِفْتَاحِ الْبَيْتِ مِنْ حُلَيْلِ بْنِ حَبَشِيَّةَ إِلَى عَبْدِ الدَّارِ بْنِ قُصَيٍّ مَا يُؤَكِّدُ عَقِيدَةَ الْحِجَابَةِ الذَّكْرِيَّةِ، جَاءَ فِي ذَلِكَ⁽⁶⁾:

ثُمَّ إِنَّ حَلِيلًا مَاتَ، وَأَوْصَى بِالْحِجَابَةِ مِنْ بَعْدِهِ إِلَى ابْنِهِ الْمَخْتَرِشِ، وَدَفَعَ الْمِفْتَاحَ إِلَى حُبَيِّ، وَأَمَرَهَا أَنْ تَبْعَثَ بِهَا إِلَى أَخِيهَا الْمَخْتَرِشِ، وَأَشْرَكَ مَعَهَا فِي الْوَصِيَّةِ أَبَا غَيْشَانَ الْمَلْكَانِيَّ، وَابْنَهَا عَبْدِ الدَّارِ ابْنَ قُصَيٍّ، فَلَمَّا رَأَى قُصَيٌّ أَنَّ حَلِيلًا قَدْ مَاتَ، وَغَيَّبَ بَنُوهُ، وَالْمِفْتَاحَ بِيَدِ امْرَأَتِهِ وَابْنِهِ، طَلَبَ إِلَى حُبَيِّ أَنْ تَدْفَعَ الْمِفْتَاحَ إِلَى ابْنِهَا عَبْدِ الدَّارِ، وَقَالَ: إِنْ رَجَعْتَ إِخْوَتُكَ إِلَى مَكَّةَ أَصَابَهُمْ هَذَا الدَّاءُ، وَقَالَ: اطْلُبُوا إِلَيَّ أُمَّكُمْ تَوْلِيَكُمْ الْحِجَابَةَ، حَتَّى سَلَسْتُ لَهُ بِذَلِكَ، وَقَالَتْ: كَيْفَ أَصْنَعُ بِأَبِي غَيْشَانَ، وَهُوَ وَصِيٌّ مَعِي، فَقَالَ: أَنَا قُصَيٌّ كَفَيْتُكَ أَبَا غَيْشَانَ، وَأَرْضِيهِ حَتَّى يَكْتُمَ ذَلِكَ وَيَخِيرَ النَّاسَ إِنَّمَا أَوْصَى حَلِيلٌ بِالْمِفْتَاحِ إِلَى ابْنِ ابْنَتِهِ عَبْدِ الدَّارِ بْنِ قُصَيٍّ، فَفَعَلْتُ، وَدَعَا قُصَيٌّ أَبَا

(1) الأزرق، محمد بن عبد الله، أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، ج1، ص111.

(2) البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر، أنساب الأشراف، ج1، ص66.

(3) يُنظر: البغدادي، محمد بن حبيب، المنمق في أخبار قریش، ص282-283.

(4) تتشكّل خزاعة من هاتين القبيلتين.

راجع: ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل، البداية والنهاية، ج2، ص455.

(5) ابن هشام، السيرة النبوية، ص119.

(6) يُنظر: البغدادي، محمد بن حبيب، المنمق في أخبار قریش، ص286-287.

غبشان، وسأله أن يدع الأمر الذي أوصى به حليل إلى ابنته، فيصيب عرضاً من الدنيا، فطابت نفس أبي غبشان، وأجابهم إلى ذلك، فأعطاه قصي أثواباً وأبصرة، فقال الناس: أخسر من صفقة أبي غبشان.

هكذا، يُوصي حليل بالحجابه إلى ابنته، ولم تكن المفاتيح بيد حبي إلا لندفعها إلى أخيها، فلا يجوز أن تبقى بيد أنثى، لذلك طلب قصي منها أن تدفع المفاتيح إلى ابنته عبد الدار بدلاً من أخيها مُتعللاً لها بأمر الداء الذي سيصيب إخوانها إن رجعوا، خشية منه إن عادت خزاعة إلى مكة فتنازعه في حكمها، فكان منها أن تنزل إلى طلب زوجها، ثم بقي من يشاركها في الوصية، أبو غبشان، فكان من قصي أن يرضيه بعرض من الدنيا لقاء إخباره الناس أن حليلاً أوصى بالحجابه إلى ابن ابنته عبد الدار بن قصي، وقد اختاره بدلاً من أمه، رغم أن أمه أقرب إلى أبيها من ابن ابنته، ذلك أنه إن اختارها فستعلم الناس باطل ما يقوله أبو غبشان، لأن الحجابه في عقيدتهم قرينة الذكر لا الأنثى.

تُظهر روايات بعض الإخباريين، أن حليلاً جعل ولاية البيت إلى ابنته حبي، فتروي: "أن قصياً لما تزوج حبي بنت حليل، ونقل حليل عن ولاية البيت جعلها إلى ابنته حبي، واستتاب عنها أبا غبشان، فاشترى قصي ولاية البيت منه بزق خمر وعود"⁽¹⁾.

غير أن هذه الرواية تبدو ضعيفة ومتناقضة، ذلك أنها تغفل عن ذكر المُخترش ابن حليل، أخي حبي الذي أوصى والده بالحجابه إليه، وتُجمل من أبي غبشان وارثاً لحليل، فيشترى قصي منه ولاية البيت، وهي التي تنص ذات الوقت على أنه نائب لا وارث، ثم إن ولاية البيت إن جعلت إلى حبي كما في الرواية، لكان بالأولى أن يشتري قصي ولاية البيت منها لا من أبي غبشان، وإن استتاب والدها أحد عنها، لكان بالأولى أن يستنيب زوجها، أو أحد أبنائها، فهم الأقربون إليها.

دار الندوة

وهي الدار التي ابتناها قصي بعد أن ولي أمر مكة، وجعل بابها إلى المسجد الحرام⁽²⁾ من أجل منح هذه الدار وما يدور فيها من أمور نوعاً من الحرمة والقداسة⁽³⁾، ويظهر ذلك عند مطالعة تكم الخطوب التي كانوا يعقدونها فيها، "فاذا أعضلت قضية اجتمع الرؤساء من كل قبيلة فاشتروا فيها وفصلوها"⁽⁴⁾، "وما تُنكح امرأة، ولا يتزوج رجل من فريش، ولا يعقدون لواء لحرب قوم من غيرهم إلا فيها"⁽⁵⁾، كما "كان يتم فيها الإعلان عن بلوغ أبناء القبيلة وبناتها سن الرشد، كذلك كانت المركز الذي تنطلق منه، وتعود إليه القوافل التجارية"⁽⁶⁾، وما "كانت

(1) ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل، البداية والنهاية، ج2، ص492.

(2) يُنظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ص126.

(3) الملاح، هاشم يحيى، الوسيط في تاريخ العرب قبل الإسلام، ص270.

(4) ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل، البداية والنهاية، ج2، ص489.

(5) ابن هشام، السيرة النبوية، ص126.

(6) ابن سعد، محمد بن سعد البصري، الطبقات الكبرى، بيروت، دار صادر، 1960، ج1، ص70.

الجارية لتبلغ أن تدرع، فلا يُسَقُّ درعها إلا فيها تيمناً بها، وتعظيمًا لها، وتشريفًا لأمرها وسأئها⁽¹⁾، ويبدو أن عهدت دار الندوة إلى بني عبد الدار لارتباطها بولاية البيت، وعقيدتها الذكورية.

النواء

وهي راية الحرب، تُعقد فيجتمع إليها المحاربون، ويسلمها قصي لمن يتولى القيادة العامة، وهي وظيفة رئيسة في تنظيم القبيلة العربية، فشيخ القبيلة هو الذي يعلن الحرب على القبائل الأخرى، ويدعو المحاربين إلى الاجتماع، ويتولى قيادة الحرب، أو ينيب عنه من يقودها⁽²⁾.

للحروب عند الجاهليين طقوس تُنبئ على استنادها إلى مرجع عقدي، حيث يجتمع رؤساء القبيلة للتشاور فيها، ويقف شيخ القبيلة أو من ينوبه على رأس جيشه، وتتقد السنه شعرائهم، فينظّمون أشعارًا تتجاذب بين إلهاب حماسة مقاتليهم، وهجاء أعدائهم⁽³⁾، يصرمون لها النيران⁽⁴⁾، ويشاركون آلهتهم فيها، فكانوا "يحملون صورة العزى في حروبهم"⁽⁵⁾، وفي يوم الزورين "جعلت تميم بكرين مجلّين قد قيدهما على رأس جيشها، وقالت: هذان زورانا أي إلهانا"⁽⁶⁾.

بدا تماهت طقوس الحروب عندهم بطقوسها في الفضاء السامي، حيث "كان أعضاء الروابط الشعائرية في بلاد ما بين النهرين، ولدى الساميين الشماليين يتشاورون قبل بدء الحملات العسكرية، وكانوا يرافقون الجيش في ساحة المعركة، ويبلغون وحى الإلهة، وينشدون أشعارًا هجائية جارية تفيض بالمقت والكراهية تجاه العدو، ويحثون مقاتليهم على اجتراح أعمال بطولية باسلة"⁽⁷⁾.

يبدو أن الحروب قد اقتترنت بالعقيدة الذكورية، ما جعل النواء بيد عبد الدار وحلفهم لعقة الدم، فإن شاركت العزى/ نجمة الصباح في الحروب صباحًا، فإنها تشارك بصفقتها إلهًا ذكرًا لا أنثى، وهذا تقليد المنطقة الساندة، ففي فترة سيادة الأشوريين - وهي الفترة التي بلغت فيها عشتار منزلة عظيمة باعتبارها إلهة للحرب-، عُبدت كإله ذكر في الصباح، يشرف على الحروب والمذابح،

- (1) البغدادي، محمد بن حبيب، المنمق في أخبار قريش، ص32.
- (2) يُنظر: الشريف، أحمد إبراهيم، مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول، ص134.
- (3) يقول ابن سلام الجمحي مغلًا سبب كثرة الشعر بالطائف أيام الجاهلية: لأن الشعر إنما يكثر بالحروب التي بين الأحياء، نحو حرب الأوس والخزرج، أو بين قوم يُغيرون، ويُغار عليهم.
- (4) الجمحي، أبو عبد الله محمد بن سلام، طبقات الشعراء، تحقيق: عمر فاروق الطباع، بيروت، دار الأرقم بن أبي الأرقم، ط1، 1997، ص40.
- (5) يُنظر: الجاحظ، عمرو بن بحر، الحيوان، ج4، ص290.
- (6) السواح، فراس، لغز عشتار، ص220.
- (7) اللسان، "زور".
- (7) فهد، توفيق، الكهانة العربية قبل الإسلام، ترجمة: حسن عودة وردة بعث، بيروت، شركة قدمس للنشر والتوزيع، 2007، ص100.

وأنتى في المساء ترعى الحب والشهوة⁽¹⁾، ثم كان من بين آلهة الصفويين، الإله (عزيرو)، وهو كوكب الصباح، وكان إلهًا مذكّرًا، وكوكب المساء وكان مؤنثًا⁽²⁾.

هذا أمر الأحلاف في العصر الجاهلي، نالت حظوة سامية في عقيدتهم، وحرمت ما بين المتحالفين ما حرمت قرابة الدم، أسبغوها هالات من الحرمة والقداسة، وقرنوا أيمانها بيمين الإله، وأجروها بطقوس مهيبية، وعقدوا من بين ما عقدوا منها ما يقف على وظائف البيت العتيق، فكان المطيبون ولعقة الدم، وقد اختص كل منهما بالوظائف الدينية التي ارتبطت بالعقيدة الممثلة لكل واحد منهما.

Sources & references

- The Holy Quran.
- The Bible.
- Al-Azraqi, Mohammed bin Abdullah (1996). *Akhbar Makka wa ma jaa'a min Athar*, verified by: Rushdi Malhas (1st ed). Beirut, Dar: al-Andalus.
- Al-assad, Nasser Eddin (2010). *Pre-Islamic poetry sources of historical value* (9th ed), Amman: Dar Al-Fath for Studies and Publishing.
- Al-asha Alkabeer Maimon bin Qais (n.d.). *Dewanu*, verified by: Mohammed Hussein, Aljmames, Library of Arts Aljmames.
- Al-asfahani, Hamza Bin Hassan (1988). *Sawa'air almthal ala wazin afa'al*, verified by Fahmi Saad (1st ed), Beirut, The world of books.
- Al-asfahani, Abu al-Faraj (2008). *Al-ghani* (3rd ed), verified by: Ihsan Abbas wa akhar, Beirut, Dar Sader.
- Alusi, Mahmoud Shukri (2009). *Bulugh alarab fi ma'areft ahwal ala'arab unia bi sharhu wa dabtu*. (1st ed) Mohamed Bahgat Alathari, Beirut, Dar scientific books.
- Imura'a alqayis (2004). *Dewanu* (5th ed), verified by: Mustafa Abdel Shafi, Beirut, Dar: scientific books.

(1) يُنظر: القمني، سيد، الأسطورة والتراث، ص74.

(2) المرجع السابق، ص87.

- Aws Ben Hajar (1980). *Dewanu* (1st ed), verified by Mohammad Yousuf Najim, Beirut, Beirut: House for Printing and Publishing.
- Baqer, Taha (1976). *Muqademeh fi Adab aliraq alqadeem* (1st ed) Baghdad: Freedom House printing.
- Baghdadi, Mohammed bin Habib (1985). *Almunamaq fi Akhbar qurayish*, verified by: Khurshid Ahmed Fariq (1st ed), Beirut: The world of books.
- Ibn Bakkar al-Quraishi, Zubair (2010). *Jamhart nasab quraish wa akhbarha* (1st ed) Beirut: Scientific books printing house.
- Al-Baladhuri Ahmad bin Yahya bin Jaber (1996). *Ansab Alshraf* verified by: Sohail Zakkar wa akhar (1st ed) Beirut: Dar alfikir.
- Al-jahid, Amr ibn al-Bahr (2013). *Al-haiwan*, verified by: Haroon Abdul Salam (1st ed) Cairo: Ibn Sina library.
- Al-Jamhi, Abu Abdullah Muhammad bin Salam (1997). *Tbaqat ashura'a*, varified by: Omar Faruk foul (1st ed) Beirut: Dar al-Arqam ibn Abi al-Arqam.
- Al-Gohary, Ismail bin Hammad Asahah (1990). *Taj Alugha wa sehah alarabiya*, varified by: Ahmed Abdul-Ghafoor Attar (4th ed) Beirut: Dar Al Ilm. Hatim al-Tai (n. d.). *Dewanu*, Beirut: Dar sa'ab
- Alhuta'aiah (1993). *Dewanu*, berwayt wa sharih ibin asikeet, varified by : Mufeed qamheyeh(1th ed) Beirut, Dar Al-kutub Al-elmeyeh .
- Alhamwi, Yaqoot bin Abdullaha (1990). *Mua'ajam Albuldan* ,varified by: Farid Abdul Aziz Aljundi (1th ed), Beirut, Dar Al-kutub Al-elmeyeh.
- Ibn Duraid Mohammed bin Hassan (n.d.). *Derivation (Al-ishtiqaq)*, varified by: Abdul Salam Haroon, (3th ed) Cairo, Khanji Library.
- Al- deek, Ihsan(201).*Alustura fi fikir aljahili wa adabu*,(1th ed) baqa alghribeha, Mujama'a Alqasmi llugha Ala'arabiya.

- Sada Alstura Wa Alakhir Fi Ashia'ar Aljahli, Baqa Algharbya, Mujama'a Alqasmi llugha Ala'arabiya.(2013 i 1).
- Zuhayr bin Abi Sulma (1988) *Dewanu*, varified by: Ali Hassan al-Faour, (1th ed) Beirut, Dar Al-kutub Alelmeyeh .
- Alzzouzna, Abdullah al-Hassan bin Ahmed (2001). *Sharish Almua'alaqat asaba'a*, varified by: Mohammed Abdel-Qader al-Fadhli, (1th ed) Beirut, modern library.
- -Ibn Saad, Mohammed bin Saad al-Basri (1960)*The major classes(Atabaqat Alkubra)* , Beirut, Dar issued
- -Aswwah, Firas (2001). *Myth and Meaning (Alstura Wa Alma'ana)*, (2th ed) Damascus, Dar Aladdin.
- Gilgamesh (2002). *Malhamet Arafdain al-khaleda*, (1th ed) Damascus, Dar Aladdin.
- -Lughuz Ishtar. (2002).*Al-uluha Almua'anatha Wa Asel Adeen Wa Alustura*, (8th ed) Damascus, Dar Aladdin.
- Mughamaret Alaql Alula (2007), (1th 13 ed) Damascus, Dar Aladdin.
- Asharif, Ahmed Ibrahim (n.d.) *Mecca Wa Almadena Fi Aljahelya Wa aahed Arasool*, Cairo, Dar Arab alfikr.
- -Ashahristani, Abul Fateh Muhammad ibn Abd al-Karim. (2009) *Almilal Wa Anihal*, varified by: Ahmed Fahmi Mohammed (8th ed) Beirut, Dar scientific books.
- Elk (2004) *Mufdilaat*, varified by: Qusay Hussein, Beirut, Dar library Crescent.
- Tabari, Abu Ja'far Muhammad bin Jarir (n.d.). *The history of nations and kings*, varified by: Mohamed Abou El Fadl Ibrahim, Beirut, Dar Sowaidan.
- *Tafseer Atabari* (n.d.) Cairo, Dar Al-ma'arefa.

- Tarafa (2002). *Dewanu*, varified by: Mahdi Naser Adeen, (3th ed) Beirut, Dar Al-kutub Al-elmeya.
- Abdul Hakim, Shawky (1982). *Encyclopedia of Arab folklore and mythology*, (1th ed) Beirut, Dar return.
- Abdul Rahman, Nusrat (2013). *Asora Alfanya fi Asha'ar Al-jahili Fi Dua'a Anaqid Alhadeeth*, (1th ed) Amman, Dar kunooz Al-marefa.
- Ajeeneh, Muhammad (2005) *Mawsua'a Asateer Ala'arab A'an Al-jahelya Wadalalatiha*, Beirut, Dar Al-Farabi, revised edition At folder one.
- Al-akad, Mahmoud Abbas. (2008) *Allah*, Giza, (6thed) Egypt renaissance for printing, publishing and distribution.
- Ali Jawad (1970). *Al-mufasal Fi Tareekh Al-arab Qabil Al-islam*, (1th ed) Beirut, Dar Al-ilm lmalayeen.
- *Research in the history of the Arabs before Islam*, study and review: d. Naseer al-Kaabi (2011), (1th ed) Beirut, Academic Center for Research.
- Frankfurt, Henry (1982). *Pre-philosophy*, translated by Jabra Ibrahim Jabra, (3th ed) Beirut, Arab Association for Studies and Publishing.
- Fraser, James, Adonis (1957). *A Study in mythology and ancient Eastern religions*, translated by Jabra Ibrahim Jabra (1th ed), Beirut, Dar intellectual conflict.
- Al-Folklore Fi Al'asir Alqadeem by Nabila Ibrahim (1972), (1th ed) Cairo, the Egyptian General Authority for books.
- Fahd Tawfiq (2007), *Al-kahana Qabil Al-islam*, translated by Hassan Odeh and Randa Ba'aeth, Beirut, Sharekat kudmus lltawzee'a wa anashir.
- Al-qurtubi, Mohammed bin Ahmed Al Ansari (n.d.). *Al-jama'a li-Ahkam Al- Koran*, Beirut, Dar Al-fikir.
- Al-qazweni, Zakaria bin Mohammed bin Mahmoud (1989) *Aja'aib*.

- *Al-makhlooqat wa Ghara'aib Al-mawjodat*, (1th ed) Beirut, Dar revival of Arab heritage.
- Al-qimni, Saied (1999). *Legend and heritage*, (3th ed) Cairo, Egyptian Center for Research civilization.
- Qais bin Al-khateem (n.d.). *Dewanuh*, varified by: Nasir al-Din al-Assad, Beirut, Dar Sader.
- Ibn Kathir, Abu Al-feda Ismaeel(2013).*The beginning and the end*, varified by: Muhyiddin Deeb mistu , Akhir , (3th ed)Damascus, Dar Ibn Kathir.
- Ibn Al-kalbi, Mohammed bin Sa'aib (2011). *Idols*, varified by: Ahmad Zaki Pasha, (1th ed) Beirut, Dar Al-kutub Alelmeya.
- Al-Kumait bin Zaid al-Asadi (2000). *Dewanu*, varified by: Mohammed Nabil Tarifi, (1th ed) Beirut, Dar Sader.
- Majidi, Khazaal (1997). *Religions and beliefs of prehistoric*, (1th ed) Amman, Dar Ashorooq.
- -Mutoon Sumer (1998). (1th ed) Amman, Al-Ahlieya for publication and distribution.
- -Muhammad Zakaria, (2012). *The religion of Mecca in ignorance: Kutub Al-hams and A-tls and Al-Hilla*, (1th ed) Amman, Al-ahlyea for publication and distribution.
- Al-marzouki, Abu Ali Ahmed bin Mohammed bin Hassan (2002). *Times and places*, varified by: Mohammed al-Dulaimi, (1th ed) Beirut, the world of books.
- Al-mallah, Hashim Yahya, (2011) *Al-wasset Fi Tareekh Al-arab Qabil Al-islam*, (2th ed) Beirut, Dar al-kutub al-elmya.
- Ibn Mandoor, Jamal al-Din Mohammed bin Makram(2007). *Lisan Al-arab*, (4th ed) Beirut, Dar Sader.
- Al-Nabigha Adubani. (1996). *Dewanu*, varified by: Abbas Abdul Sater, (3th ed) Beirut, Dar scientific books.

- Nema, Hassan (1994). *Encyclopedia of mythology and legends of ancient peoples*, (1th ed) Beirut, Dar Al-fikir Al-lubnaneey.
- Ibn Hisham, (2005). *The Prophet's biography*, varified by: (1th) Mustafa A-saka Wa Akhareen, Damascus, Dar Ibn Kathir.
- -Al-yacoubi, Ahmad ibn Abi Al-yacoub, *Tareekh Al-yaqubi*, varified by: Abdul Amir al Muhanna, (1th ed) Beirut, Al-a'almi company publications.